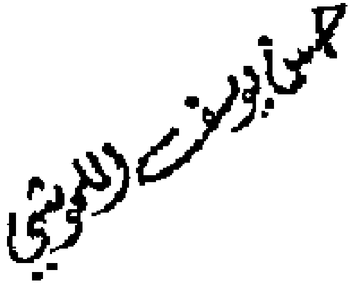
الطمي

قصص

عبد الله هارون

مجلس الثقافة العام



الطَّمْـــي

إصدارات

مجلس الثقافة العام

الطَّمْـــي

قصص

عبدالله هـارون عبدالله

الناشـر

مجلـس الثـقـافـة الـعـام

اســـم الكـتاب	الطمــي (قصص)
اســـم المؤلـف	عبدالله هارون عبدالله
ســنـة النـــشــر	2008 م
رقـــم الإيـــداع	769 / 2008 م
الترقيم الدولـي	978 - 9959 - 38 - 692 - 2
تـصميم الغـلاف	علي العباني
لــوحــة الغلاف	محمد الغرياني
التنفـيذ الفنـــي	دار قـــباء الحديثة - القاهرة

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات - سرت

هاتف 002185468622 - بريد مصور 002185473161

فـرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار

هاتف 00218214449894 - بريد مصور 00218213335388

ص ب 2764 طرابلس

فـرع بنغـازي - الفويهات الغربية - الطريق الدائري الثاني

هاتف 00218612241577 - 00218612241578

بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي

بريد إلكتروني - LCC2_2005@Yahoo.ca

مُـفارَقة مُزْدَوِجة

كـان يـزرع أهدابَ حبيبته سحابةً ممطرةً فوق الورق.. والفقر يـزرع فـوقهُ كوخاً.. والطقس يزرع فوق الكوخ سحابةً.. والـمذيعُ يزرع فوق السحابة بُشرى:

ـ أيها السادة.. تتم الآن بنجاح عملية استزراع السُّحُب.

هطلـت في أُذنـيه أخـبار الغـيث الـنافع.. وهطـل الغـيث علـى أوراقـه.. لم يكن محتاجاً لدليل لكي يُصدِّق الخبر.. فما اعتادت الإذاعةُ أن تكـذب.. لكـن الكـوخَ أصـرَّ علـى إبـراز الدلـيل حيـنما تحول إلى غـربال.. ذابـت الخطـوط التـي كـان يـريدها غـيمةً تهمي فوق الأفق لتحاكـي (بنــزيلها)[1] أهدابَ حبيبته.. ذابت على الورق.. وذابت في رأسه أيضاً.

نمـت في رأسـه سـحابة عقـيم هـذه الـمـرة.. سـحابة مـن الأسـئلة.. وعلامـات الـتعجب: مواطن فقير في بلادٍ قادرةٍ على

---

(1) التّزيل : منظر خيوط المطر حينما تُشاهَد من بعد.

استحلاب السُّحُب.. يتحول حَقُّه المسروق إلى صواعق ومياه تُغرقه.. يا للمفارقة المزدوجة..!

تضخَّمت السحابة العقيم.. صَيَّر أحلامه طائرات سلَّطها على تلك السحابة نافثاً فيها ما لديه من رذاذ الرجاء.. لكن السحابة ظلت عقيماً.. توغلَّت في نفسه.. كان ينتظر أن تُبْرق وأن تُرعد.. لكنها الْتزمت الصمت.. صمتت صمتاً مخيفاً:

- اهطلي أيتها السحابة وُعُوداً وعطاءً.. واملأي فراغ العمر خضرةً ونماءً.

... لم يحدث شيء.

* * * *

الْمُدبْلَج

(مُهْداة إلى أبطالها الأحبّاء إلى نفسي)

(1)

كنت أطالع صوراً فوتوغرافية قديمة.. تعود لأيام الدراسة.. إحداها جمعت الحَمْقَى كما كان يسميهم سيبويه.. وهم جمال وفتحي وبالقاسم وعبدالعزيز وأنا.

وغالبني النعاس واختلط عندي الخيال بالواقع بالذكرى بالحلم.

(2)

ـ أكمل.. قال المُحقّق.

قال سيبويه مواصلاً سرد قصته:

ـ استدرجوني يا سيدي.. استغلوا طيبتي وأخذوني في زَرْدة.. عفواً.. أقصد نزهة خلوية.. استغلوا أيضاً حبي للَّحم المشوي.

وصلنا المنطقة التي من المُقرَّر أن نبيت فيها.. منطقة جميلة ذات شجر كثيف.. تُطل على البحر.. منطقة (رأس الهلال) لابد أنك تعرفها.

ـ أعرفها.. أكمل.. واختصر إذا سمحت.

ـ المهم.. بعد العشاء أخذنا نتسامر.. وكان الحديث يدور في معظمه حول موضوع الجن.. وما يمكن أن يُلحقه بالإنسان من ضرر.. وأدهشني أنهم متفقون على أن الجن يمكن أن يُسبِّب للإنسان بعض العاهات.. وخاصةً العمى.. وكانوا يُلحُّون على هذه النقطة بالذات.. هذا يؤكِّد فكرة المؤامرة..؟

ـ وبعد.

ـ بعد ذلك أوينا إلى مضاجعنا داخل الخيمة.. وطُرِحت بعض الاقتراحات للعب الورق والشواء وغيرها.. بحجة أن الوقت مُبكِّرٌ بالنسبة للنوم.. ولكنَّني نمت قبل أن يُنفِّذوا أيًا من الاقتراحات المطروحة.. بعدها بساعة أو ساعتين أيقظوني.. كان الظلام دامساً فلم أبصِر شيئاً.. خاطبني جمال قائلاً:

ـ هيَّا يا مفتاح خوذ شوايا.

في الواقع كانت رائحة الشواء تملأ المكان.. بينما كان

الآخرون منهمكين - كما بدا لي - في لعب الورق.. سمعتُ فتحي يحتجّ على لعب ورقة معينة قائلاً:

- ليش لعبت اسباطه يا غشيم.. العب كبـي والاً ديناري.

أدركـت حيـنها أننـــي فقـدت بـصري.. فـصحت مستخدماً اللهجة لأول مرّة:

- أيش قلت..؟

- ياناعلاي.. انعميت.. انعميت.

سمعت بالقاسم على ما أظن يصيح فيّ:

- قل تباً لي.. لقد ذهب بصري يا صاح.

كررّت صرختـي وقد استولى عليَّ الذُعر:

- ياناعلاي.. انعميت يا جماعة.

فانبرى فتحي يُصحِّح لي:

- قل يا قوم.. ويجوز أن تقول: يا قوماً أوَّاه..! ويصح أن تقول: أواهاً لقد ذهب بصري.

وسمعت من يصرخ فيّ:

- صَهٍ يا غلام.

وآخر يُردِّد في سعادة:

- بَخٍ بَخٍ.. مَرْحى مَرْحى.. يا قوم لقد نجحنا.

وهكذا تجاهلوا صراخي تماماً.

- وماذا حدث بعد ذلك.

- بدأوا بعدها موجةً من الضحك.. وشعرتُ بأن غُلالة من الضوء الضعيف تُجلّل المكان.. لكنني لم أعد أبصر شيئاً.. قالوا بأنهم أشعلوا النور.. وأخذوا في تهدئتي.. كان مُزاحاً ثقيلاً.. لا بل انتقاماً.. لقد مثّلوا عليّ هذه التمثيلية ليُرغموني على استخدام اللهجة فذهبوا ببصري.

- تساءل المُحقّق:

- هل قلت انتقام..؟

- نعم.

- أوضح أسبابه ودوافعه في رأيك.

- جمال وقف ورائي ذات مرة فخاطبته قائلاً:

- ابتعد عني يا غلام.

فـرأيته وقـد اغـتمَّ لذلك.. وأسرَّها ـ كما يبدو ـ في نفسه.. وفتحـي كـان متعاوناً في الإحصاء العام الأخير.. وزارنـي في منْزلي من أجل تسجيل البيانات الخاصة بي.. وسألني:

ـ كم عمرك..؟

فأجبته ساخراً من جهله:

ـ عمري علمه عند الله.

فغيَّر السؤال قائلاً:

ـ كم لك من السِّن..؟

فأجبته:

ـ اثنتان وثلاثون سناً.. أتى التسوس على بعضها.

فبدا عليه الضيق من هذه المراوغة والتفاصح.. وسألني:

ـ ما سنُّك..؟

ـ فقلت:

ـ سنـي من العظم.

فسألنـي وقد ازداد ضيقه:

- فمن أي دفعة من المواليد..؟

أجبته:

- لا أنتمي لأيٍ منها.

فصاح مُحتدًّا:

- لا تضيّع وقتي الله يخرب بيتك.. أنت تعرف قصدي.

ثم جرب آخر صيغة قائلاً:

- ما تاريخ ميلادك..؟

وكان بإمكاني أن أراوغه أيضاً.. ولكني اكتفيت بإعطائه الإجابة - نكايةً فيه - بالتاريخ الثالث[1].. وتركته يحسب عدد السنوات ويُحَوِّلها.. وخرج بعد ذلك غاضباً متوعِّداً.. وليلة البارحة نفَّذ وعيده مع بقية المتآمرين.

- هل أجريت لك الفحوص الطبية..؟ تساءل المُحقّق.

- نعم.. وإن كانت بسيطة.. وهي تؤكد على أن الخلل في الدماغ وليس بالعين.. وهذا أخطر.

(1) التاريخ الثالث: يُقصد به التأريخ بوفاة الرسول ﷺ .. واختصاره (و.ر).. وقد عُمِل بـه في ليبيا ولفترة بجانب التاريخين الهجري والمسيحي.. وجاء بعدها وربما إضافة لها جميعاً ما يمكن أن يُسمَّى بالتاريخ الرابع.. وهو التأريخ بميلاد الرسول ﷺ.

- لا داعـي للـبكاء.. الطـب متقدم وخاصةً بالخارج.. وستُعالَج وتُشفَى بإذن الله.

قال المُحقّق مُهدِئاً سيبويه الذي أجهش بالبكاء.

قال سيبويه والعَبْرَةُ تخنقه:

- ومن أين لي بتكاليف العلاج..؟ هل يتكفَّل بها هؤلاء الحمقى..؟

(3)

عبدالله.. جمال.. فتحي.. بالقاسم.. عبدالعزيز..

هكذا نادى علينا المُحقّق.. وقد كنَّا نجلس على أريكة خشبية مستطيلة قريباً من باب مكتب التحقيق.. بحيث سَمِعْنَا ما دار فيه.. دخلْـنا مُـرتبِكين مُحرَجِين.. فقد تسبَّبنا - كما يبدو - في الإضرار بـصديق عزيـز.. رغـم تـضايقنا مـن إصـراره على استخدام اللغة الفـصحى أو الكلاسـيكية في حـواره معـنا.. ولكـن مـا كنَّا نقصد الانـتقام مطلقـاً.. كنَّا نتعثر ببعضنا البعض.. كان سيبويه أو مفتاح يـضع نظَّارتـه الشمـسية علـى عينـيه.. ويُـسنِد بجانبه عكَّازاً.. وفي مواجهته المحقق والكاتب.. كان سيبويه يحدِّق أمامه بمستوىً مرتفع قلـيلاً.. كأنـه يحـدِّق في شـيء علـى الجدار.. عندما جلسنا تساءل موجِّهاً سؤالَه إلى المُحقّق:

- هل حضر الحمقى..؟

تجاهـل المُحقّـق سؤاله ولاحظْنا أنّه يحاول تَجنُّب النظر إليه.. نظر إلى الأوراق أمامه.. وتوجَّه إلينا قائلاً:

- سنقرأ عليكم ما قاله رفيقكم وتُعلّقون عليه.

بـدا هـذا الأسـلوب في التحقـيق غـريباً.. تبادلـنا النظـرات للحظة.. بادر عبدالعزيز بعدها قائلاً:

- مـا فـيش داعي يا فندي.. فعلاً نحنا عملنا مقلب أو ابصاره.. ممكن تسميها ابصاره بايخة مع مفتاح.. وما نحسابوها توصل لها التتايج.

ردَّ سيبويه:

- ليس الأمر مُزاحاً.. بل هو انتقام محض.

قال المُحقق:

- هل فعلاً لديكم نية مُبيَّته للانتقام..؟

- لا أبـداً.. معقـول نـتقموا مـن صاحبنا على أمور تافهة كيف هذي..؟ أجبتُ المحقّق.

(4)

بعـد أن وقَّعـنا علـى المحـضر.. طلب منَّا المُحقق انتظار سيارة الـسجن في الخـارج.. وبيـنما نحـن جالـسون على الأريكة التـي كُنَّا نجلس عليها من قبل تاركين سيبويه مع المُحقق.. كنَّا نسمع حديثهم علـى هـيأة همهمـة وهمـس.. وسمعنا ضحكة قصيرة صادرة على الأرجح من المُحقق.

خـرج بعـد ذلـك سـيبويه يتحـسَّس طـريقه بعكَّـازه.. ويُساعِده المُحقق.. وتعثَّر بـي ووخزنـي بالعكاز قائلاً:

- تنحَّ عن الطريق يا أحمق.

واصـل سـيره نحـو الـبوابة الرئيـسية.. وسـاعده المُحقق على الـصعود إلى سـيارة الشرطة.. التـي كانت في انتظاره وانطلقت به.. أمَّا المُحقق فقد عاد إلى مكتبه.. وبعد ربع ساعة تقريباً وصلت سيارة الـسجن.. كانت سيارة نصف نقل حُوِّرت لتلائم وظيفتها.. حُشِرنا في صندوقها الذي يشبه القفص.. وانطلقت مُسرِعة.

كـنَّا مُـنهكِين مُتعـبِين.. فمنذ صباح اليوم السابق لم نذق طعم الـنوم.. في اللـيلة الـسابقة انتظـرْنا حتـى استغرق سيبويه في نومه.. ونفَّـذنا المقلـب.. فذُعِـر وأخـذ يصرخ ويبكي.. مما اضطرنا إلى جمع

أشـيائنا وطَـيّ خيمتـنا.. وإلى أن نعود أدراجنا على عجل إلى طبرق قـاطعين مسافة حوالي مائتـي كيلومتر.. وبعد وصولنا إلى المستشفى قـدَّم شـكواه ضـدنا.. ولأنّ الـوقت متأخـر أُوقِفْـنا لحين التحقيق.. وتركنا سيبويه بالمستشفى.. ولم نجتمع به ثانية إلا أثناء التحقيق.

حـين مـررنا بجـوار سـوق (القزاز) حانت منَّا التفاتة نحو المقهى الواقـع بالجهـة المقابلـة - مُـستغلّين تهدئـة الـسيارة من سرعتها بسبب وجـود مَطَـبّ - ولـشد مـا كانت دهشتنا عظيمة حينما أبصرنا سيبويه جالـساً وهـو يتـصفَّح - على ما يبدو - صحيفة (البطنان).. وأمامه ما خيِّل لنا فنجان قهوة.

- صَبّي.. صَبّي.. وقّف.

صرخنا في السائق الذي عاد إلى زيادة السرعة من جديد.. وحيـنها انتـبه سـيبويه.. فأطلـق ساقيه للريـح.. وابتلعته الأزقَّة المجـاورة.. أمَّـا الـسائق فاكتفى بتهدئة السرعة.. وأَسْمَعَنا ما لَذَّ وطاب من الشتائم والسباب.. ولم يُعطِنا فرصة لإفهامه الأمر.. وكـان أن أدخلـنا الحـبس.. والـشك يـساورنا في الوصول لحل لورطتـنا.. إذ أنَّ عرضـنا علـى النيابة قد يتأخر.. والحل العرفي يـبدو بعيد المنال.. فالسحر انقلب على الساحر.. وأصبح الأمر

بـيد سـيبويه.. الـذي لا أحـد يستطيع التنبؤ بما يدور في ذهنه.. ولا أن يُميِّز جِدَّه من هزله.

لَغو إيطالي

دفعتنـــي ظـروف معينة للطعن في تاريخ ميلادي.. فقد كنت مـن مواليـد الأربعيـنات مـن هـذا القـرن الموشـك علـى الرحيل.. فادَّعـيتُ أننـــي مـن مواليـد العـشرينات: مـن مواليـد عـام 1925 تحديداً.. وحينما دخلت على الطبيب الشرعي لكي يجري لي بعض الفحوصـات.. ومـن ثَـمَّ يُرجِّح صدق ادعائي أو يستبعِدهُ.. أخذ في تصفح أوراقي وهو يبتسم ثم نظر إلَيّ وقال:

ـ ثلاث وعشرين سنة إلى الخلف مرة واحدة..!

شرحت له الأسباب والظروف.. قال بعد تفكير:

ـ أنت من مواليد درنة؟

ـ نعم.

المفـروض اتْـرَجِّع الذاكرة إلى الوراء نفس المدة.. هناك حادثة مشهورة حصلت في درنة لَمَّا كان عمرك عشر سنوات.. تذَكَّرْها؟

فوجئت بالسؤال الذي لم يكن متوقعاً منه كطبيب.. ولذلك تظاهرت بعدم الفهم.. أخذ يشرح لي بأنه وقعت في عام (1935) فيما يظن حادثة مشهورة في تاريخ المنطقة يفترض أني أتذكرها.. وهي حادثة تتعلّق بفيضان وادي درنة وما سبّبه من خسائرَ للأهالي.. تظاهرت بمحاولة التذكُّر ثم قلت مصطنعاً الجدية:

- كان عمري عشر سنوات.. كيف نذّكّرْها ونا في هاذيك السِّنّ؟

هددني الطبيب بعدم التصديق على صحة ادِّعائي.. ثم اتضّحَ أنه لم يكن جادًّا في تهديده.. وصدّق على الشهادة.. ونصحني بالاستفسار عن الحادثة.. عندما عدت إلى البيت سألت عنها والدي الذي صرت وإيَّاه من أبناء جيل واحد:

- إِيْه يا ولدي.. تنشد عن سيل درنة.. زرّونا[1] الطليان.. بنينا عشش وخَصاص م القش والقصبة.. في مجرى السيل.. في الوادي.

واستطرد الوالد في حديثه مستدعياً مرحلة بكاملها.. كان الوالد قد رُحِّل هو وأسرته مع بعض الأهالي من إحدى المناطق المجاورة إلى درنة خلال فترة ترحيل النواجع إلى المعتقلات الجماعية.

(1) زرّونا : حشَرونا.

وبعد إعدام شيخ الشهداء استتب الأمر لإيطاليا في ليبيا.. باستثناء بعض تنظيمات للمعارضة أو المقاومة في المهجر.. والتي تحاول استغلال أي ثغرة في النظام العالمي القائم آنذاك لصالحها.. أو صالح قضيَّتها.. ولم تر فيها إيطاليا خطراً.. وهكذا أخذت الأحلام تداعب موسوليني بإقامة إمبراطورية في إفريقيا.. فشرع يُصوِّر الصومال والحبشة ـ عبر إعلامهِ ـ بجنّة الله في الأرض.. ومن ثَمَّ سرت في البلاد حُمَّى التجنيد لدرجة تخصيص مكافأةٍ لكل من يُحضِرُ ليبيّاً متطوِّعاً للقتال بهما.

ـ هالكلام بعد أربع سنين على تشنيقة سيدي عمر.

قالها الوالد وهو يَسْرِدُ تلك المرحلة.

كان الطليان قد بدأوا في إيقاف أعمال الشركات التي تستخدم العمالة الليبية في محاولة لسد أبواب العيش.. وإرغام الليبيين على الذهاب إلى المستعمرات الإفريقية.

ـ تبي الحقيقة قبل نبي نمشي.. لكن أمّي الله يرحمها قالت: الله لا يربحك إن كان مشيت.. قعدت.. في هاذيك السنة جا نو ثقيل.. شتا ثقيل.

ظلَّت الأمطار تهطلُ بغزارة لعدَّة أيام.. حفل وادي

بالـضَّحّاك الـذي يـشطر درنـة بالمـياه وانـدفعت في فيضان عارم يكتسح العشش والخَصَاص.. وراح ضحيَّة ذلك بعض الأهالي.. نجـا والدي وأسرته بأعجوبة.. ولكن بقوا في العراء يُعانون وطأة الصقيع مع من نجا من الأهالي.

ـ ثالث يوم وإلاَّ هو رابع يوم.. قبل الظهر.. سمعنا البَرَّاح[1].

كان البَرَّاح يدعو الأهالي للتوجه إلى مقر البلدية حيث تُطرَحُ قـضيَّتهم.. خَفُّـوا لتلبـية النداء وفي أذهانِهم يدور تساؤلٌ: ترى ماذا هـناك..؟ أخـذوا يـتوافدون علـى مـيدان الـبلدية.. تلقَّوا من بعض الليبـيين المـتعاملين مـع السلطات الإيطالية تخمينات مطمئنة.. ازداد التدافع والتزاحم.. أُمِروا بالجلوس على الأرضية الباردة يُحِيطُ بهم الجـنود.. وبقـوا علـى تلـك الحالـة لمـدة سـاعة أو أكثر.. بعد ذلك وُضِـعَت بعـض المقاعـد ومنـضدة أمام مدخل البلدية وبرز القاضي ومُساعِداه ومحاميان.

ـ محكمة..!

صـرخ من كان يقوم بدور حاجب المحكمة .. فأُمروا بالوقوف.. وبعد ما اتخذ القاضي ومن معه أماكِنَهم أشار للحشد بالجلوس.

---

(1) البرَّاح : المنادي

ـ نادِ على المتهم أو وكيله.

ـ محامي السيل.

نهض أحد المحامِيّين..

ـ نادِ على المُدَّعي أو وكيله.

ـ محامي الأهالي.

نهض المحامي الآخر.

قال القاضي مُوَجِّهاً كلامه إلى محامي السيل:

ـ موكلك متهم بالاعتداء على الأهالي وقتل بعضهم.. واكتساح خيامهم وقذف أشلائهم البائسة في البحر أو دفعهم للإقامة في العراء.. فماذا تقول في ذلك؟

قال محامي السيل:

ـ سيدي إنَّ موكلي بريءٌ من كل التهم....

قاطعه محامي الأهالي:

ـ سيدي القاضي.. إننا في ظل حكومتنا المجيدة وفي ظل النظام الفاشي البديع وفي عهد زعيمنا ومعلمنا موسوليني العظيم الذي ما فتئ يحرِّضنا على إحقاق الحق وإقامة العدل لا يعقل

أبـداً أن يُتْـرَكَ المعـتدي بـلا رادع ولا عقـوبة.. ولا يمكـن لعدالتكم الاكتفاء بسماع أنا بريئ لتحكموا ببراءته.

قال القاضي:

- أرجو من محامي السيل تقديم إيضاحات كافية.

- موكلـي كـان يـسلك طـريقَهُ التـي اختطَّها منذ زمن مُغْرق في القِـدَم.. والأهالـي هـم المعـتدون.. هـم الـذين سـدُّوا مجـراه بخيامهم البائسة تلك.

تدخَّل محامي الأهالي:

- مـا هـذا الافـتراء؟ متـى كانت الأمكنة وقْفاً على ذويها؟ متى كـان لـلأرض مالكٌ ثابت؟ لقد شاهدنا كيف أنَّ أوطاناً تُنتَزعُ ملكيـتها من شعوب وتستحوذ عليها شعوب أخرى في حركة صـراع الأمـم ودفعهـا لبعـضها الـبعض.. مـنطِق زميلي جِدُّ خطير.. ويتضمَّن غمْزاً في سياسة إيطاليا الفتية.

قال محامي السيل:

- إنَّ موكلـي لـيس شعباً.. إنَّه السيل.. أرجو من المحكمة مراعاة ذلك.

ردَّ محامي الأهالي:

ـ نحـن نـتحدثُ عـن هـذه المِلْكـية المـزعومة التـي يُضفي عليها زميلـي قداسـةً زائفـة.. وكـأن السيل عاجزٌ عن تغيير مجراه.. السيل الذي نحت هذا الأخدود العظيم ألا يستطيع أن ينحت أخدوداً آخر؟

قال محامي السيل:

ـ لم يُعرض عليه ذلك من قبل.. ثم إن الأهالي كانوا يعرفون أنهم كانوا يعترضون مجرى السيل.. فليس في الأمر مفاجأة أو غدر.

صرخ محامي الأهالي:

ـ ثم إنك أوضحت في ردِّك السابق أن السيل ليس شعباً.. وهذا صحيح.. ولكنك لَمَّحت إلى أن السيل أقوى من الشعب فهل هذا صحيح أيضاً؟

قال محامي السيل:

ـ دع الشعب يفعل فعله.

وهكذا استمر هذا الجدال أو اللغو إلى وقت الغروب تقريباً..

وعـندما قـال محامـي السيل شيئاً يتعلق بالمقارنة بين الشعوب

والسيول مؤكداً على جبروت هذه الأخيرة وملمحاً إلى أن الأهالي ليسوا مضطرين إلى البقاء بليبيا بكاملها إذ بإمكانهم أن يذهبوا إلى الحبشة على سبيل المثال..

سأل القاضي محامي الأهالي:

- ماذا تقول في ذلك؟

- أقول إن حكومة موسوليني العظيم - أطال الله عمره - قادرة بالإرادة الفاشية على إرغام حتى السيول على تغيير مسارها.

سأله القاضي أيضاً:

- فماذا ترى بشأن الأهالي؟

- لا أرى شيئاً.. أترك الأمر لعدالة محكمتكم.

حينذاك رُفعت الجلسة للمداولة.. ثم أُصدر الحكم ببراءة السيل ونُصح الأهالي باحترام مجراه وعدم الوقوف في وجه تياره.

قال الوالد:

- رَوَّحْنا واحد يضحك.. وواحد يبكي.. وواحد حاير.. الطليان كانوا فاضيين ومنتصرين.. شنقوا سيدي عمر.. وكسَّروا

الـشعب.. ومـا عـاد فيه حد يقول لهم: هايا[1].. وقعدنا على هاذيك الحالة نين سلَّط الله على الظالم أظلم منه.. والحمد لله اللي ما يدوم حال.

(1) هايا ع الشعب (مثلاً): ارفعوا أيديكم عنه .

تفّــاحــة

(1)

مـع بداية كل يوم لابدَّ له من إلقاء نظرة من نافذته عليها.. لم تكـن وحـيدة أمّهـا.. فقد كانت لها أخوات كثيرات يشاركنها عطاء الأم نفسها.. ولكـنَّها كانت أقربهن إلى نفسه.. ما هو السبب..؟ لا يدري.. ربما لإطلالتها البهيّة التـي تُنعم بها عليه.

هكـذا تعلَّق بها.. تعلّق بتفاحة.. متابعاً نموها منذ كانت غضَّة طرية.. ملاحظاً تورُّدَ وجنتيها وانتفاضة جسدها.. كبرت ونمت أمام ناظـريه.. ولكـن تفاحـته الأثيرة تلك لم تكن لتبوح له بِما يعتمل في داخلـها.. لَـم يكـن يـبدو لـه منها إلاَّ القشرة.. ولَم يستطع ـ وهو الفنان المرهف الشعور والذي استغرقته هواية التصوير ـ أن يلاحظ شـيئاً مـن معاناتهـا.. وربمـا يـرجع ذلك لاحتفاظه دائماً بمسافة بينه وبيـنها.. كانـت كافـية لتمـنعه مـن رؤيـة مـا يحـدث لتفاحـته.. أو بالأحرى رؤية أَعراضه.

اليوم.. وبعد غيابٍ ليس بالقصير.. ها هو يسعى إلى أُمّ تفاحته وقد افتقدت معظم بناتها.. بقيت تفاحته وعدد قليل جداً من أخواتها.. أيمد يده لينتزعها من أحضان أمها..؟ تفاحة نضجت إلى هذا الحد لابدّ لها أن تقطف.. حينما اقترب واختصر المسافة هاله ما رأى.

(2)

أعدَّ آلة التصوير وزوَّدها بالشريط.. وتَهَيَّأ لالتقاط صورة لتفاحته وقد أجلسها على المائدة أمامه.. أكمل الخطوات المعتادة فكانت بين يديه صورة مثيرة للدهشة.. تفاحة بعينين غائرتين.. وأنف مسروق لم ينل كفايته من النمو.. وشفتين مزمومتين.. رأى فيهما تعبيراً عن إحساسٍ بمرارة وشعورٍ بامتعاض.

(3)

وضع الصورة داخل ظرف.. وأرفق بها رسالة مختصرة.. يرجو فيها نشر الصورة تحت عنوان: (من قدرة الله).. أو ما شابه ذلك من عناوين.. مما اعتادت صحف البلديات وصحف الأندية على نشر مثل هذه الصور تحتها.

ولم يكـن الأمـر بالنـسبة لهـذه الـصحف ليـسلم مـن بعـض المطـبات..كمطـب (الغابـة) التـي تتخذ هيأة شارع من الأشجار.. رسمـت جذوعها في اليمين عبارة (لا إله إلاَّ الله) وفي اليسار (محمد رسول الله).. واتَّضح فيما بعد أن تلك الصورة لم تكن صورةً لغابة حقيقية.. بل هي مجرد غابة مرسومة.

..قبل أن يُغلق الظرف ألقى نظرة على التفاحة.. واحتفظ بها تحـوّطاً مـن تـشكك رئـيس التحرير.. فقد يتشكك في كون الصورة لتفاحة حقيقية.

(4)

حيـنما انتـزع التفاحة المتعضة من أحضان أمها.. كان دافعه في ذلـك أكْلـها.. ولكـن قـسمات وجههـا المـتعض أنقـذتها مـن الالتهام.. وهو إذ يحتفظ بها ما زال يحتفظ برغبة في تناول تفاحة.

خرج إلى شجرة التفاح.. وهَمَّ باقتطاف تفاحة أخرى.. وهاله المنظـر.. لقـد ارتسمت عليها ملامح وجهٍ ممتعض.. اقتطفها وشقَّها بالـسكين توطـئةً لأكلـها.. ولكـنه لم يـتمكن مـن ذلك.. فقد عبثت الديـدان بأحـشائها.. ولقـد عثـر علـى بعـضٍ منها.. ألقى بالتفاحة بعـيداً.. وخـرج لإحضار ثالثة.. وجه آخر.. شقَّه بالسكين.. ووجد

آثـار الديـدان اللعينة.. تتبع الآثار التـي تبدو على هيأة أنفاق دقيقة ممتلـئة بذرات بنية.. نفق ينتهي بالعين.. وآخر يشبه الأنف.. وثالث ينتهـي بمـا يشبه الشفاه المزمومة.. ألقى بأشلاء التفاحة.. ولم يُجَرِّب أن يفحص وجهاً رابعاً.

(5)

لم يقفـل الظـرف.. فقـد عـزف نهائـياً عـن إرسـال الرسـالة والـصورة.. لقد فهـم أن هذا الامتعاض البادئ على وجه التفاحة لم يكن سوى تعبير عما تحسه من ألم بسبب الديدان العابثة بأحشائها.. ولم تكـن العـيون والـشفاه إلا ثقـوباً دخلـت أو خـرجت منها تلك الديدان.

* * * *

الشَّبَح

غلالة ظلام لم تكن معتمة تماماً.. لكنها تكفي لمحو الظلال.

لم يكن الظلام دامساً إذاً.. لذا كان بإمكان الأول أن يرى ما يحمله الثاني.. ولأن الثانـي كان يحمل مسدساً لذا انصاع الأول لأوامره.

وقـف مديـراً ظهـره إليه.. وكَفَّ عن الحركة تماماً.. ولم يجرؤ على الالتفات أو حتى اختلاس النظر لمن يقف خلفه.

تحـرك الليل بخُطىً ثقيلة بطيئاً بطيئاً.. ثم بدأت فلوله تتلاشى شـيئاً فـشيئاً.. وحلَّـت محلـها طلائعِ الفجر.. ثم برز قرص الشمس تدريجياً في الأفق.. كما لو كان قائداً منتصراً.. حينئذٍ بدأت الأجسام تـنجب ظِـلالاً.. لاحـظ ذلـك الواقف أنَّ له ظِلاً يقف منبطحاً كما تقـف الظِّـلال.. فأخـذ يـبحث عـن ظِل الثاني.. وبحذر شديد أخذ يحـرك مقلتـيه لتغطي أكبر مساحة.. لعلَّه يعثر على الظِّل الذي يهدد ظلَّه.. ولكنه لم يعثر له على ظِل.

ضـجَّت برأسـه الأسئلة: مـا الـسبب..؟ أيكـون الثانـي بلا

ظِـل..؟! أم أن الـشمس نفسها تخشاه.. فلا تجرؤ على الاقتراب منه لترسم له ظِلاً..؟

وعـرف الإجابـة حينما استدار ليجد نفسه واقفاً بمفرده.. ولا يوجد من يهدده أو يهدد ظِلَّه.

قَـفَّ شعر رأسه.. وازدادت خفقات قلبه.. وانساب ماء باردٌ في أعـضائه كلّها.. وجحظت عيناه.. وتراخت ركبتاه.. فبرغم زوال الخطـر ورحيل المخاوف برحيل الليل.. إلاَّ أن فكرة مزعجة تسلَّلت لحظـتها إلى رأسـه.. الـشبحِ.. نعم الشبح.. لقد تذكَّر أنه سمع ذات يوم منذ زمن بعيد أنَّ شبحاً يجوب ذلك المكان.. وكأنَّ ستار النسيان قـد حَجَـبَ تلـك الذكـرى تماماً.. فظلَّت هاجعةً حتى استيقظت في رأسه مع استيقاظ الطبيعة.

انتابته لوثة.. واعترته قشعريرة.. ورَدَّد:

- الشبح.. الشبح..

... الشبح كان قد مضى.. ولكنَّه نسي ظِله.

* * * *

الطَّمْي

في نهاية الخريف اكتسبت السماء لوناً رمادياً.. وكأنها بذلك تقول: إنني حُبلى بالمطر. المتطلع إلى قمم الجبال الغربية التي تُحيط بأعالي الوادي.. يستطيع أن يُخمِّن ذلك.

في الوادي.. بل في البرك المنتشرة على امتداده.. كانت الضفادع - وقد هجرت الغناء والزغردة منذ فترة - تتذمر من الرتابة.. ومن المُعدّل المنخفض الذي تتجدد به المياه.

في بِرْكة (الزَّرْقا) - التي استمدت اسمها من عمقها الكبير.. الذي يعطي إحساساً بأن مياهها ذات لون مائل إلى السواد - في بِرْكة الزَّرْقا كانت الضفادع تعاني شعوراً حادًّا بالاكتئاب.. ولم تكن راضيةً عن نمط حياتها.. التي لا يُغيِّر من رتابتها إلاَّ تلك الرعشة التي تُثيرها إحدى أو كلتا المضخَّتين اللتين تدسان أنفيهما في مياه البِرْكة.. واللتين تقومان برفع المياه لمزرعتين تتقابلان على ضفَّتي الوادي.

كانت السماء حُبلى إذاً.. ولذا فلابد من الولادة.. وبالفعل فقد هطلت الأمطار بغزارة.. وعلى مدى ساعات وساعات.. وحفل الرافد الشمالي لوادي (مارّة) بالمياه.. مُنسَابة من الأعالي سالِكة مجرى الرافد بفرعية - فرع (طراخِنت).. وفرع (أمّ قْدَيْح) - اللذين يلتحمان في ذلك المكان.. حيث وقعت معركة شهيرة في إحدى الحروب الأهلية التي كان الأتراك يلجؤون إلي إشعالها من حين إلى آخر.. لكسر شوكة بعض القبائل.. أو لتحقيق مآرب خاصة.. مُستغِلّين في ذلك القبيلة.. ذلك الجواد الشيطاني الذي يروق للشياطين امتطاؤه.. ضاربين أبناء هذا الشعب بعضهم ببعض.. ولطالما حالت بساطة الأهالي وقلة وعيهم بينهم وبين اكتشاف ما يبيّت لهم.. ولكنَّ هذين العاملين لم يحولا بين الأهالي وبين الغناء.. أجل كانوا يغنّون:

الْحَدّ بينّا لَرْدام   اليوم العْبَيدات صاوبَن

حيا الله عباس دَيِّر   بعد هونن صاحباته

التحم فرعا الرافد الشمالي.. ولكنَّ استجابة هذا الرافد لَم تكن متناسبة مع غزارة الأمطار.. لأنه منبسط.. وهو ترابي في معظمه.. ولكن تلك الاستجابة كانت كافية لمنع العبور عبر الطريق القديمة.. وبقى منفذ وحيد يربط (مارّة) بالطريق العام.. هذا المنفذ

هـو الطـريق الجديـدة التـي تعتلـي صـهوة الجبل.. هذا عن الرافد الشمالي.. فماذا عن الرافد الجنوبي؟

هـذا الـرافد يشبه الرجل السريع الغضب.. بكلمة.. بقطرة.. يمكن استثارته.. وذلك راجع لقلة انبساطه.. وطبيعته الصخرية.

شـرع يجمـع مـياهه مـن غـرب (بـيْت ثامِر).. ومر في طريقه بمنطقة (مسعودة).. فجمع مياهها.. وما تساقط من تِينها وكرومها.. وما يتركه الرعاة وما تتركه قطعان أغنامهم في أثناء تردُّدهم على نبع (مـسعودة).. وانطلـق في مـسيرته يـزداد قـوةً كلَّما تقدم.. حتى إذا وصـل مـزارع (القْـدع) أبـدى غضبَهُ مما بذله المزارعون في غيابه في إعـداد شـبكات الرَّيّ.. ولذا شرع يفكّكها بحنق.. وسحب أنابيبها.. ولم يـنس أن يجلِـب معه مضخّات الرَّيّ أيضاً.. بالإضافة إلى الخُضر وما طالته يده من أشجار الفاكهة.. والأسلاك الشائكة وما يُستخدم معها من أعمدة.. وما وجده في طريقه من الحيوانات.

(الفاسْكَة) بـناءٌ ضخم مهيب.. يبلغ ارتفاعه أكثر من عشرة أمـتار فـوق سـطح الأرض.. ويمـتد بجذره في الأرض بعمق لا يقل كـثيراً عن ارتفاعه.. مبنى ذو أبواب مستطيلة.. ذات ارتفاع واتساع عظـيمين.. ولـه نـوافذ بعـضها دائـريّ الـشكل.. وهـو مـتوازي مـستطيلات يـواجه الـشمس حـين شـروقها بإحـدى صـفحتيه

المستطيلتين.. ويواجهها بالأخرى حين الغروب.. ولكنّ خدوده ووجهه عامَّةً لم ينجُ مما يشبه النَّمَش.. نَمَش كنَمَش الجُدْري بالوجه.. إنها آثار الرصاص.. ولماذا الرصاص؟ بُني هذا المبنى في عهد الاستعمار الإيطالي.. لكي يُستخدم لتجميع مياه عيون (مارَة).. لنقلِها إلى سهول الْمَرْج.. لري المزارع التي كان يُدِيرها المُستَوطِنون الطليان.. لكنَّ آثار الرصاص البادية على مُحيَّاه كانت تقول (إنَّ هذا الحلم الكبير - الذي دار بخيال المُستعمِر - واجه مقاومة أكبر من قِبَل الأهالي). وهكذا بدت (الفاسْكَة) مَعْلَماً مَهيباً.. يُمَثِّلُ حلماً كبيراً.. ومقاومة أكبر.

عند (الفاسْكَة) التقى الرافدان.. امتزجا.. واندفع السيل عبر الوادي الْمُنبسط.. فغمرت المياه تماماً الطريق الجديدة التي تربط شمال المنطقة بجنوبها.. ولذا لم يعد العبور منها مُمْكناً.. وأمام الطريق غطَّت المياه الرَّفَّ الْمُنبسط.. حيث أُقِيمت ذات يوم في العهد الإيطالي (برَّاكة) الحراسة.. وحدث ذات شتاء أن هطلت الأمطار بغزارة كهذه المرة.. واندفع السيل بقوة كما يفعل اليوم.. وحاصر (البرَّاكة).. فصعد العسكر الطليان على سطحها وشرعوا في الغناء.

كانوا واثقين من ثبات الأرض والبيت تحت أقدامهم.. ولكنَّ

السيل خيَّب ظنَّهم فتحركت (البرَّاكة).. واصلوا الغناء غير مصدِّقين.. ولكن حين تأكَّدَ لهم ما حدث.. تحوَّل غناؤهم إلى استغاثة يائسة بعد فوات الأوان.. فقد دفع السيل (البرَّاكة).. ثم هوى بهم عبر الجرف الكبير إلى البِرْكة في الأسفل.

عبر الجرف الكبير صنع السيل شلاَّلاً أحمر مُزمجِراً.. واندفع بما يحمل.. بعد أن حمل معه ما وجده في البِرْكة من ضفادع.. كانت الضفادع سعيدة مبتهجة.. تارةً تكون على السطح.. تارةً أخرى تكون في عمق السيل.. أحياناً تتصادم وأحياناً تتباعد.. ولكنّها في كل الأحوال كانت سعيدة ترقص وتغني وتزغرد.. إلامَ يحملها السيل..؟ أغلب الظن أنها لم تكن تفكّر في ذلك.

واصل سيره.. يجرف كل ما يجده أمامه.. بصرف النظر عن نفعه وجماله.. هكذا هو السيل قوة جارفة تفتقر إلى التمييز.

كلَّما تقدم لاقى دعماً من روافده المتعددة.. وأضاف عدداً آخر من الضفادع.. كل رافد يساهم حسب مقدرته.. حتى إذا بلغ (سرسْرة) لاقى دعماً كبيراً من رافد العين.. تآمر هذا الرافد مع الوادي على تخريب المزرعة التي تقع عند ملتقاهما.. حَمَلا أولاً ما زرعه صاحب المزرعة.. ثم نزعا تماماً غلالة التراب الذي كان المزارع يحضره بنفسه من عدة أماكن ليخلق مزرعةً من لا شيء.

بعـد نـبع (الـزّوّاية) ـ هـذا النبع الذي تدور حوله الأساطير الغـريبة ـ من أسطورة اسمه الذي جاء بسبب صوت يعتقد البعض أنـه يُـسمع أحـياناً قـرب النـبع.. إلى أسطورة العجل الصغير الذي يصدر خواراً عذباً بقربه.. حتى إذا وجدته وحملته فرِحاً به تحوَّل بين يديك إلى قطعة متصلبة من روث البقر ـ بعد هذا النبع بقليل انضم إلى الـسيل رافد آخر من روافده المهمة.. كانت المياه زاخِرةً هذه المرة بـنوع واحـد من النباتات.. إنه نبات العرعر (الشعرا).. هذا النبات الـذي اتُخِـذَت ثمـاره الـصغيرة زمـن الاستعمار والجوع غذاءً شبه وحيد للإنسان.

عـند مـنطقة (النّغْـسنيّة) تعـزَّز بفعل انضمام أحد روافده إلى مـسيرته.. وبعـدها التقـى بـوادي (الخـضرا).. وانعطـف المسار نحو البحـر.. حتى إذا وصل الجزيرة ـ قبل منطقة (جرم) ـ انقسم السيل إلى فـرعين محـيطاً بالجزيرة إحاطة تثير الإعجاب مثلما تثير الرهبة.. مـاذا كانت تفعل الضفادع..؟ لربما كانت ترقص وتغني.. أمَّا السيل فكـان يرسـم بما يحمل من غثاء خطًّا على جانبـي الوادي.. موثّقاً به المستوى الذي وصل إليه ارتفاعه على طول المسار.

تكاد رحلة القطرات الأولى التـي في المقدمة أن تنتهي ببلوغها البحـر.. ها هو يقترب من الجسرين الحديثين ـ جسري وادي الناقة

ـ والمقامين قرب المصب.

كـان الـسيل في قمـة عـنفوانه.. وقـد أحضر كثيراً من الهدايا لـيقدِّمها إلى البحـر.. لم يـنس شـيئاً.. حتـى نـباتات الدِّفْلَى الجميلة والنَّمَـيلة والزَّهَيْـرة والبْـردى والقَـصْبة والخـرُّوب والصفـصف والسخّاب والبَطُّوم والمرْسِين.

حينما بلغ الجسر الأول صَدَمَهُ صدمةً عنيفة.. اودعها غضب الـشتاءات العقـيمة الماضـية.. صدمة أدَّت إلى تصدّعه لدرجة لم يعد معها صالحاً للمرور.

مـاذا كانـت تفعـل الضفادع حينذاك؟ كانت جموعها تعبر من تحـت الجـسر المتصدّع.. بينما اصطفّت جموع من البشر على ضفّتـي الوادي.. يتأملون الجسر وما فعله السيل به.

بلـغ الـسيل الجـسر الثانـي المُقام مكان الجسر القديم.. الذي أقـيم في العهـد الإيطالـي.. ذلـك الجـسر الإيطالـي الـذي افتـتحه (موسـوليني) قبل الحرب العالمية الثانية.. أي منذ ما يربو عن خمسين سـنةً.. وكـان قـد اطمـأنَّ إلى نهاية المقاومة.. بإخضاع آخر وأشرس معقَـلٍ مـن معاقلـها.. وطفـق يبنـي أحلامـاً عريضة.. لاتّخاذ هذه البلادِ وطناً وامتداداً أبدياً لبلاده.

يـوم الافتـتاح أُرْغِـم الأهالـي على الاصطفاف على جانبـي الطـريق لتحـية (موسـوليني).. كانـوا بَقِـيّة شـعب أتـت الحـروب والمجاعات والأمراض والمعتقلات والمنافي على معظمه.. ولم يبقَ منه إلاّ هـذه القِلَّـة البائسة.. أُجْبِـروا علـى الاصطفاف تحيةً للمنتصر.. وأُجبِروا على الغناء له أيضاً:

مــرحبتين بكــازي رومــا   مـن غـيره مـا فـيه حكـومة

فمـضى مسروراً.. مُعتقِداً أنه بأغنية مجبولة بالدموع وبالأسى قد ضمن ولاءهم.

كانـت جمـوع الـضفادع تعـبر من تحت الجسر.. منها ما قد لفـظ أنفاسـه.. ومـنها ما كان يُحْتَضَر.. ومنها ما كان يبدو عليه الإرهاق والملل من الغناء.. وربما الخوف وقد أبصر البحر.. وخمَّن أي مصير ينتظره.

لعـل مـا بقى حَيًّا من الضفادع يفكر الآن.. كيف يكون طعم الموت.. حينما يكون ممتزجاً بطعم مياه البحر.

* * * *

آدَم والعفْرِيتة

- وين صورتك يا حاج يادم..؟ ورِّيها لنا.

- وين صورتك يا جَدّي؟

- ورينا صورتك يا خالي.

- ورِّينا صورتك يا سِيْدي.

ويفتح الحاج آدم في كل مرة المشبك المعدني الذي يقفل به جيب (الفَرْملة).. ويُخرج بشيء من الاعتزاز ظرفاً صغيراً عليه ختم محل التصوير.. ويعرض ما به من صور على من يطلب.. أو تطلب منه الاطلاع عليها.. وقد يُدلي ببعض التعليقات منبهاً فيها ذلك المُعجَب أو تلك المُعجَبة إلى ما في كيفية وضع (الشنّة) من أناقة.. أو ما في قصّة الشارب من جمال.. ولا ينسى أن يشير إلى قصّة شعر الرأس الدائرية التي تبرز من تحت حوافّ (الشنّة).. وهي تمثّل نسخة أولية من قصّة (الكابوريا) المنتشرة في أيامنا هذه بين الشباب.

* * * *

الحـاج آدم شـيخ مرح مُشتهِر بدعاباته اللاّذعة.. وقد اكتسب لقب الحـاج بمجـرد أن عـزم على أداء فريضة الحج.. أي بمجرد أن نـاداه الحج على حد تعبيره.. وأخذ يُعِد ما يُطلَبُ في هذه الحالة من إجراءات.. وكان من بينها بالطبع عدد من الصور الشخصية احتفظ بها لفترة لكي يعرضها على أكبر عدد من أقاربه ومعارفه.. وقبل أن يُقـدِّمها ـ مـع باقـي الإجـراءات إلى الجهة التـي طلبتها ـ بيوم كما عزم حدث ما لم يكن في الحسبان.

* * * *

تقـدّم أحـدهم مـنه راجـياً الاطلاع على الصور.. وقدَّمها له كالعـادة.. فاخـذ هـذا يُمْعِـن النظر وينتقل ببصره بين الصورة وبين وجه الحاج آدم.. وفجأة صاح:

ـ هذي ميش صورتك يا حاج.

كانت الصور لشخص آخر بالفعل.. ولكنّ المرء يحتاج إلى قـدر كـبير مـن دقّـة الملاحظـة لكـي يكتشف ذلك بسبب شِدّة التـشابه.. وهو تشابه خُدِع به حتى صاحب محل التصوير برغم خبرته الطويلة.

تأمل الحاج آدم الصور واقتنع بصحّة ما قاله ذلك المُكتشِف.

زمَّ شفتيه امتعاضاً.. ثم شرع يَصُبُّ شتائمه ولعناته وسخرياته على صاحب الصور من خلالها:

- انظر ها الكِشْفة.. انظر ذانه.. انظر شَنّته.. ريتوا ها القرد.. ريتوا ها العفريتة.

وطلب بإلحاح من أحد أبنائه الإسراع إلى محل التصوير لإحضار صوره وتخليصه من تلك العفريتة.

* * * *

في اليوم الذي سافر فيه الحاج آدم إلى الأراضي المقدسة تم توديعه وتوديع رفاقه الآخرين من الحجّاج بالمنطقة.. وارتفعت الرايات البيضاء المربعة على بيوتهم: راية بيضاء لكل حاجّ أو حاجّة.

* * * *

مضى أسبوع على سفر الحجيج والرايات البيضاء تتباين في خفقانها: رايات تخفقُ بمرح وطرب لتوحي بأنَّ أصحابها ينعمون بأوقات سعيدة.. وأخرى تنطوي على نفسها أو تلتف على سواريها الصغيرة لتعبّر عن اضطراب نفوس أصحابها وانقباضها.

راية الحاج آدم كانت أشدَّهن مرحاً وابتهاجاً.

* * * *

في اتصال هاتفي منه بابنه.. يطمئن فيه الحاج آدم على أحوال المنطقة.. سأله ابنه عن صحة ما تعبّر عنه الراية.. وكانت دهشة ابنه عظيمة عندما أخبره بأنّه سعيد حقًّا.. وأنَّ سعادته بسبب التقائه بشبيهه وإقامتهما معاً في غرفةٍ واحدة.

* * * *

مقياس الزَّلازل

كانت زيارتي لصديقي الناقد والقاص (علي مسعود) والمقيم بمدينة (الأبيار) بعد أيام من حادثة زلزال القاهرة.. وصادفت زيارتي له حفل عشاء.. كان قد أقامه بمناسبة قدوم مولود.. وهكذا وجدت نفسي بين أناس من أقاربه وأصدقائه وجيرانه من مختلف الأعمار والمشارب والمِهَن.. قُدِّمَت لهم خلال العَشاء إحدى عشرة قصعة.. ومن يعلم بأن كل قصعة تُقدم عادةً لأربعة أَكَلَة (ارباعة).. يمكنه أن يُخَمِّن عدد المدعوين وغير المدعوين الذين اكتضَّت بهم (المربوعة) الكبيرة التي تربو مساحتها على خمسة وسبعين متراً.. كان أثاث (المربوعة) بسيطاً.. سجّاداً ذا لون واحد خال من أية زخارف.. ومجموعة من المراتب الأسفنجية المغلَّفة بقماش زُيِّن بزخرفة نباتية.. بالإضافة إلى مجموعة من الوسائد المُغلَّفة بالقماش ذاته.. وعُلِّقت على أحد الجدران بعض الصور.. وعلى جدار آخر رسمة معلقة لطفل بائس تترقرق في عينيه الدموع.. وفي مواجهة الحضور كان ثمة طاولة يتربع عليها تلفاز تتنازع شاشته هذه القنوات الجديدة التي جلبتها الصحون.

لم يكـن الـتلفاز ليحظـى بمـتابعة الحـضور واهـتمامهم.. فقد انقـسموا إلى مجموعات غارقة في أحاديث جانبية أو منهمكة في لعب الـورق.. ولكـن إذا ما ظهرت على الشاشة لقطة من تلك اللقطات المشاكسة للحياء صدرت عن غالبية الحضور همهمة يحاول البعض دمجهـا في الحوارات المتقاطعة.. أو تحويلها إلى ضحكة مختلقاً لها سبباً ما.. قلة من الحضور كانوا يجلسون فُرادَى.. وهؤلاء يحاولون متابعة ما تعرضه الشاشة.. ولكنهم يجدون صعوبةً كبيرة في الْتقاط الصوت المـصاحب للـصورة بـسبب هذه الجَلَبَة الناتجة عن تقاطع الأحاديث وصخب اللاعبين.

كـان (علي) يجلس بجانبـي أغلب الوقت.. وكنَّا نُكَوِّنُ بدورنا مجمـوعةً مـن هـذه المجمـوعات.. كـان حديثـنا مُنْـصَبًّا بالطـبع على اهتمامـنا المشترك والمتعلّق بالكتابة القصصية.. وكنت بعثتُ إليه منذ فـترة بـبعض النـصوص القصصية.. وبطبيعة الحال فقد كانت محوراً هامًّـا مـن محـاور حديثـنا.. كـان رأيـه فـيها يتلخَّص في أنها قصص مواكـبة للحـدث.. أو المرحلة.. فهي بذلك قصص صحفية وهذا ـ كما قال عنها ـ عيبها الوحيد.. قلت:

ـ هـل ينبغـي للكاتب أن يتعامل مع المرحلة بعد انقضائها بزمنٍ طويل؟

أجابني:

- نعم.. ذلك هو الأفضل.

* * * *

حان موعد نشرة الأخبار بالقناة التي تحتل الشاشة.. بينما كان الحضور يشربون الشاي الأخضر الذي قُدِّم بعد العَشاء.. فخفَّت الضجة.. وتعلّقت العيون بالتلفاز.. وأرهفت الأسماع.. وأخذ البعض منهم يدعون جماعة من اللاعبين المتخاصمين إلى تناسي خلافاتهم والتزام الهدوء.

كان الخبر الرئيس يتناول زلزال القاهرة.. وتوالت على الشاشة مشاهد الإنقاذ والجرحى والجثث وسيارات الإسعاف.. كان زلزالاً شديداً.. تقرُّ بذلك هذه المشاهد.. ويصدّقها مقياس الزلازل الذي سجّل قراءة مرتفعة في الهزّة الأولى.. وفي بعض الهزَّات اللاحقة والتي تعرف بتوابع الزلازل.. وتم تناول الخبر في أكثر من فقرة ومن عدّة زوايا.. وأحس الحضور بشيء من الفتور في الرغبة في المتابعة.. لكنهم لم يعودوا إلى ما كانوا فيه من لَعبٍ وأحاديث جانبية.. بل كَوّنوا ما يمكن وصفه بحلقة نقاش مرتجلة حول الموضوع.. ما هي الزلازل؟ كيف تنشأ؟ هل يمكن التنبؤ بها؟ ما مقياس الزلازل؟ وما وظيفته؟

وهكـذا دارت الأسـئلة بـين الحـضور الـذين تقلّص عددهم بـسبب انـصراف بعـضهم.. وتمّت إجابة تلك الأسئلة كيفما اتُّفِق.. لكـنّ الـسؤال الأخير كان مثيراً للجدل: إذا لم يكن لمقياس الزلازل أهمية في تجنّب أضرارها أو التخفيف منها فأين تكمن أهميته إذاً..؟ ودفـع هـذا الجانـب مـن الـنقاش بالذات أحد الحضور وكان شيخاً تجـاوز الـستين مـن العمـر إلى تذكّـر حادثة تعود بتاريخها إلى زلزال المـرج.. كـان الـشيخ يـستحثُّ رجـلاً في العقـد الخـامس من العمر جالـساً بجـواره لكـي يتذكَّر معه تلك الحادثة.. كان الرجل ذا لباس أنـيق وعـناية واضحة بمظهره.. وتدل مداخلاته في النقاش على قدر كبير من الثقافة.. استحثَّه الشيخ قائلاً:

- تذكَّر يا استاد سالم أيش دارت خالتك (حَوّا) في زلزال المرج؟

أجاب الأستاذ سالم:

- انعـم.. خالتـي حَـوّا الـواحد ما يقدر ينساها ولا يقدر ينسى أيش دارت.

* * * *

وقـع زلـزال المـرج القديمة ـ كما حدَّده الأستاذ سالم ـ وهو يـروي الحكاية.. بدقّة مساء يوم الخميس 27 رمضان 1382 هجرية

1963.2.23م.. وكان على ثلاث هزّات أودت بحياة ما يزيد عن ثلاثمائة مواطن.

واستشهد الأستاذ سالم في ذلك ببيت من الشعر العامي للشاعر (عبدالسلام الحر).. وقد شابت صوته نبْرة خجل.. كما أن الحضور - وخاصة من الشباب - تطلّعوا إليه بنظرات خجولة.. لأنَّ البيت ورد بقصيدة غَزَل لا رِثاء.. وقد ورد في القصيدة على سبيل التأسِّي.. ونصّه:

ثلاثين عشره بين يوم وليلة اللّي دفّنَوا لا طار لا شَلاّية

وكان من بين الضحايا ابن وزوج خالة سالم هذه.. وبينما كانت تصرخ وتعترض كل من يمر بها وخاصةً من الجنود الذين يقومون بأعمال الإنقاذ والإغاثة طالبةً المساعدة.. خُيِّل إليها أنها تعرّفت على أحدهم وهو يمر بها حاملاً جهازاً بين يديه.. ويسير في أثره رجل يرتدي ملابس (افرنجية) - كما وصفته فيما بعد - حاولت إيقاف الجندي مناديةً إياه باسم من تعتقد أنه هو.. كانت ترجوه أن ينبش معها الأنقاض.. لكنّها كانت مُخطِئة فلم يكن الجندي هو الشخص الذي تظن.. أسرعت نحوه متسائلةً عمّا يحمل آملةً أن يكون الجهاز ذا نفعٍ في محنتها.. وفي غمرة الفوضى تقدّم منها أحد أقاربها.. وسواء أكان مقتنعاً بما قال أم قاله من باب التهدئة.. فقد حاول

إفهامهـا بلغـة ميسّرة أن هـذا الجـندي يحمـل كما يظن جهاز مقياس الـزلازل لرصـد الهـزّات اللاحقة المتوقعة.. وتساءلت (حَوّا) عمّا إذا كـان لـذلك دخـل في إنقـاذ أولـئك القابعين تحت الأنقاض.. وكانت إجابـة قـريبها سلبية.. فلحقت بالجندي وضربته على حين غرة ضربةً أطاحـت بالجهـاز مـن يديـه وسـقط على الأرض.. وشرعت تدوسه وتدكّه بقطع الحجارة المتخلفة من الأنقاض.

وعلَّق الأستاذ سالم:

- مـوش معـروف الجهـاز كـان مقياس زلازل والاّ جهاز آخر.. لكن خالتـي كانت في ظروف صعبة وتبـي حل.

كـنت آخـر المُنـصرفين مـن عند صديقي هذا.. وقد كلَّفنـي هـذا التريـث حذائـي الجديـد.. ووجـدت بـدلاً مـنه حذاءً مُهترئاً ومُتَّسِعاً.. وَصَفَه عَلِيّ بالقارب.. أصرَّ على الاحتفاظ به وأعطانـي بدلاً منه حذاءه.

ودّعنـــي بعـد ذلـك وقـد كانـت تـرن في أذنـــي كلماتـه عن أفضلية الكتابة عن المرحلة بعد مرورها بزمن طويل.. ولم أنسَ أيضاً مقـياس الـزلازل الـذي حُطِّـم لأنـه يـتحدث عادةً عن الزلزال بعد وقوعه.. وقبل أن أدير مفتاح السيارة في مكانه قلت لعَلِي:

ـ أعجبتنـي قصة الحاجة (حَوّا).

ـ اكتبها.. ولكن سَمِّيها (مقياس الزلازل).

ثم بعد أن بدأت السيارة تَحَرُّكَها صاح كمن تذكّر شيئاً:

ـ واكتب قِصّة القِصّة.

* * * *

لا شَـيْءَ فِـي حِـيْـنِـه

كـان توفـيق قـد أنجـز في ذلك اليوم من أيام شهر الصيف[1] إنجـازين مهمـين: الإنجـاز الأول كان تعرّفه عن طريق أحد أصدقائه علـى شـخص مهـم قـد ينفعه في حصوله على سُلفة من المصرف.. وهـذا الـشخص هـو الْمَنـصوري.. وهـذا لقبه.. أما اسْمه فهو غير معـروف بالنـسبة لتوفـيق ولا لـصديقه.. وقد استطاع الحصول منه علـى وعـد بـأن يتوسّط له لدى إدارة المصرف.. وأكثر من هذا فإن المنصوري سوف يمر على توفيق ليصحبه في سيّارته نظراً لأن الثانـي لا يملك سيّارة.. وهو بحكم إقامته بمنطقة الأثرون الساحلية والواقعة علـى طـريق ليـست مطـروقة كـثيراً.. فإنه لا يضمن الحصول على سيارة تُمَكّنه من الوصول إلى المصرف.. والذي يقع في مدينة درنة.. في الوقت المحدد.

وهـذه الفرصـة ربمـا لن تتكرر.. لأن المنصوري ـ والمعروف

---

(1) شـهر الـصيف : يونـيه وهـذه التـسمية مستخدمة في الجماهيرية بالإضافة لأسماء أخرى لبقية أشهر السنة كبديل عن الأسماء الأجنبية.

بتعدد علاقاته على امتداد البلاد وتشعُب أعماله ـ من النادر العثور عليه بمنْزله.. وهو ـ علاوة على ذلك ـ قد أخبر توفيق وصديقه بأنه عازم على الذهاب بعد غدٍ إلى مالطا لقضاء إجازته السنوية.. أو (الـڤاكيشن) على حد تعبيره.

أما الإنجاز الثاني فقد تحقَّق عن طريق صديقه هذا أيضاً.. وهو يتمثَّل في حصول توفيق على شريط كاسيت به أحدث قصائد الشاعر ارحيم جبريل.. وخصوصاً قصيدته النادرة في موضوعها والتي مطلعها:

لِيّ أيّام بهن مشروحي
طَلْقِ اسْروحي
عَمِّتْ خَيْرَ الله مستوحي(1)

وأهمية هذه القصيدة لتوفيق.. ولمعظم متتبعي الشعر العامي.. تكمن في كونها على الأرجح القصيدة المتفائلة الوحيدة.

---

(1) البيت مطلع قصيدة (طق).. وهي لون من الشعر الشعبي سريع الإيقاع.. ولكي يستقيم وزن هذا البيت يجب عدم نطق الهاء في لفظ الجلالة .. أما معناه : منذ أيام وأنا منشرح البال (مشروحي) ونفسي أطلق سراحها (طلق سروحي) وذلك لأن لدي ما يشبه التوقع أو الإيحاء (مستوحي) بأن الخير سيعم الجميع.

وبالنسبة لتوفيق كانت تناسب حالته في ذلك اليوم بعد إنجازه الأول.. بالإضافة إلى أن الحصول عليها يُشْبِع فضوله في معرفة علامَ اعتمد الشاعر في تفاؤله ذلك.. مع علمه أن التفاؤل في هذا العصر بضاعة نادرة عند العرب.

عندما عاد توفيق إلى بيته كان الوقت ليلاً.. أسرع إلى آلة التسجيل المتهالكة والتي تراكم عليها الغبار بسبب عدم استعمالها لفترة طويلة.. وحاول إصلاح السلك المزدوِج الذي يزوّدها بالطاقة.

كان مستعجِلاً فنَزع العازل عن طرفي السلك بأسنانه.. وحشرهما في الفتحة المخصصة لهما في آلة التسجيل.. وحاول تشغيلها والاستماع إلى الشريط.. لكنما الآلة فضّلت الصمت فلم تكن كما يبدو متفائلة.. ولذلك رفضت التحدث بلسان المتفائلين.. حاول استنطاقها.. ضرب على الآلة براحته وكالضرب على رأس المسمار بالمطرقة فلم يزد ذلك صمت الآلة إلاّ رسوخاً.

صرف النظر عن آلة التسجيل ولم ينْزع السلك من المأخذ الكهربائي.. كانت علائم الامتعاض بادية على وجهه بالرغم من ترديده بلا وعي مطلع القصيدة المتفائلة.. وأخذ يتهيّأ للنوم.

وضع توفيق بجانبه ورقةً وقلماً ـ كعادته دائماً كلما آوى إلى فراشه ـ انتظاراً لفكرة ثمينة قد تخطر بباله في يقظته أو حينما يكون

على مشارف النوم أو حتى في الحلم.. فهو متربِّص لهذه الفكرة ولا يدعها تفلت منه بأي حال من الأحوال.

ولكـي لا يفـوته مـوعده مـع المنصوري حيث عليه أن يكون مـستيقظاً ومنتظـراً أمـام المنْـزل علـى تمـام الساعة التاسعة صباحاً.. لـذلك ضـبط المنـبّه علـى الـساعة الثامـنة والنـصف وأطفـأ الـنور واستلقى بفراشه.

مـرّت فترة من الزمن جادل خلالها الأرق وراوغه.. وقبل أن ينتصر على الأرق ويستسلم للنوم حضرت.. برقت في ذهنه فجأة.

تكاسـل قلـيلاً ولكـنّها كانت مغرية بدرجة لا تقاوم.. نهض ليـشعل المصباح فأوقع آلة التسجيل وانفصل سلك الطاقة من مكانه وتلامـس طرفاه الحاسران فنجم عن ذلك التلامس احتراق المنصهر (الفيوز) وانقطاع الكهرباء عن المنْزل.

أخـذ يتحـسس الجدران كالأعمى متّجهاً نحو النافذة المغلقة.. وفـتح الـشبّاك الزجاجي ثم الشبّاك الخشبـي فشدّه الهدوء والسكينة المخـيمان علـى القرية.. ومنظر البحر الساجي تتراقص على سطحه أشـعة القمـر الـضعيفة.. إلى الشمال وعلى الشاطئ تبرز بقايا المعبد القـديم وأعمدتـه كأنها أخاديد مستطيلة على صفحة المياه.. وكانت الـنخلات خلـف المنْزل ساكنة كأنها تُرهِف السمع لهسهسة الـموج

وهـو يـداعب صخور الشاطئ.. وأمّا إلى الغرب في مواجهة النافذة فقـد بـدت قمـم الجـبال الذائبة في السماء الباهتة.. من ذلك الاتجاه سوف يجيء المنصوري غداً.

مسح المشهد بنظرة عَجْلَى من البحر إلى القمم البعيدة والتـي تقـترب شـيئاً فـشيئاً لتحتـضن القرية من الجنوب.. ثم أقفل الشباك الزجاجـي فقط ليسمح بتسرب الضوء الضعيف الصادر عن قمر في مرحلة الشيخوخة إلى الغرفة.

لم يكـن يتوقع المساعدة من زوجته فقد كانت تنام مع طفليها في الغـرفة المجـاورة.. شـرع يـبحث عـن شمعـة متنقّلاً داخل المنْزل متعثّـراً بالأثـاث ومـصطدماً بالجـدران.. وأخيراً عاد بشمعة مشتعلة وقطعـة مـن سـلك نحاسـي ليـضعها بالمنـصهر وكرسـي ليقف عليه وسـكين بـدل المفـكّ.. وبعـد أن أتم الخطـوات المطلـوبة لإصـلاح العطـب.. دخل الغرفة وأشعل المصباح وجلس بفراشه وانحنى على الـورقة ليكـتب.. ولكـن مـاذا يكـتب.. أيـن الفكرة؟ فتَّش عنها في دهاليز الذاكرة وفتّش.. ولم يجدها في تلك الدهاليز المظلمة.

حـاول اقـتفاء أثرها ولم يعثر على شيء.. كأنّ الفكرة لم تُطِق الانتظار فهربت تحت جُنْح الظلام.. وعندما يئس من الاهتداء إليها شعر بما يشبه الحسرة وأطفأ المصباح واستسلم للنوم.

في الـصباح - وقـبل المـوعد الـذي ضبط عليه المنبه بساعتين تقـريباً - أيقظـه صـوت ناتج عن ارتطام الشبّاك الخشبـي بالجدار.. كان ذلك مزاحاً ثقيلاً مارسه معه نسيم مولع بتقليد مشية الريح.

تظاهر بأنه لم يسمع شيئاً وسحب الغطاء على وجهه.. وما أن داعـب الـنعاس أجفانـه حتـى حـرّك النـسيم الشبّاك الخشبـي بقوة فـصدر عـن ارتطامـه بالجدار صوت أيقظه.. أرهف السمع منْزعجاً منتظراً تكرار الصوت.. لكن النسيم توقف عن المُزاح والعبث.. ظل الهـدوء سائداً.. استسلم للنوم مرةً أخرى.. وفي اللحظة الحرجة عاد النـسيم إلى فعلته ثانية.. اكتشف حينئذٍ أنه من العبث تجاهل النسائم العابـثة.. نهض متحامِلاً على النعاس.. أقفل الشبّاك الخشبـي وعاد لينام نكايةً في النسيم.

هـيّأ للـنوم كـل الأجـواء المطلـوبة.. تقلَّب في فراشه مغمض العيـنين ساحباً الغطاء على وجهه.. لكنّ النوم رفض الحضور.. هل غضب النوم من هذا التردد ففرَّ بسبب ذلك من النافذة؟

سمع توفيق ضجّة في الخارج.. كانت عبارة عن صوت محرّك سـيّارة.. نظـر إلى سـاعته.. كانـت تـشير إلى الـساعة الثامنة.. ولأنه مـازال يـتوقع عـودة الـنوم مـن الـباب المقفل فلم يذهب ليستجلي

الأمـر.. ظـل الـصوت لدقـيقة أو أقل ثم سمعه يبتعد.. تمتم ببعض الشتائم في حق هذا المزعج.

في المـوعد المحدد كان يجلس على عتبة منْزله كما اشترط عليه المنصوري:

ـ الـساعة تـسعه نلقـاك بـرّة.. لا انديـر كلاكـس ولا انـدقّ ع الابواب.

ـ الساعه تسعة؟ كلمة منصورية؟

ـ كلمة منصورية ان شا الله.

أخـذت الساعات في التسرُّب وهو ينتظر صاحبه هذا وسخر في نفسه مـن (الكلمـة المنصورية) التـي يتشدَّق بها المنصوري ليخلق منها مَثَلاً شعبياً.. ليس هناك مَثَل في مَأْمن من الشذوذ.. هذا ما تراءى له.

حوالـي الساعة الحادية عشرة كان قد استوقف سيارة أجرة.. أوصـلته بعـد نـصف ساعة إلى المصرف.. كان يحلم بأن يجد صاحبه هـذا في انـتظاره ليسهل له تلك الخدمة التـي قضى زمناً طويلاً حالماً بنـيلها.. فُوجـئ بالمـصرف مقفل الأبواب والناس يخرجون من باب خلفـي.. اسـتوقف أحـد الخارجين والذي تبدو على محيّاه علامات الابتهاج وسأله:

- معقولة المصرف يسكّر م الساعة احداش ونص؟

- وين كنت راقد..؟! توا اطناش ونص.. ساعتك بي توقيت..؟ أكيد بالتوقيت القديم.. التوقيت الشتوي.. لكن تهانينا المرتب نازل في حينه ها المّرّة.. أنت تبع...

سرح بفكره وتلاشى صوت الرجل.. وما عاد يتذكّر إلاّ ما يحدثه تغيير التوقيت من إرباك.. ففي كل مرة يتغيَّر فيها التوقيت يظل الناس لفترة طويلة حريصين حينما يعطون الوقت على تحديده بأيّ توقيت.. وفي كل مرة ينقلب القديم جديداً والجديد قديماً.

كان الرجل يثرثر متحدِّثاً عن معاناته وعن ديونه التي سوف تبتلع مرتبه.. وسحب راحة توفيق المذهل وضربها براحته وهو يضحك دافعاً إياه لمشاركته ضحكه جرياً على مقولة شر البلية ما يُضحِك.

انتبه توفيق من ذهوله بسبب الصوت الناتج من اصطفاق الراحتين.. كان لدى الرجل الكثير مما يود البوح به لكن توفيق ولّى هارباً وقد شعر بأنه لم يوفق في اختيار المواقيت حتى مواقيت طرح الأسئلة.

* * * *

مُفاجأة مُتوقَّعة

(1)

كان يوماً من الأيام الأولى من أيام فصل الربيع.. والنسائم الباردة المتبقية من الشتاء تُصافح الوجوه برقّة وقد بدأ توافد الناس على المستودع منذ الصباح.. أمّا العصافير فقد استيقظت قبل ذلك بساعتين على الأقل وانتشرت.. إمّا على السور المحيط بالمستودع أو أنها طارت بعيداً ربما خارج المدينة.. بعض العصافير كان منهمكاً في عمل شيء ما في المكان الذي توجد به الآليات.

بمرور الوقت ازداد عدد الناس وأخذوا يتفحَّصون الآليات.. يدخلونها ويخرجون.. ويصعدون فوقها وهم يصدرون جلبةً وهرجاً جعلت العصافير لا تتخلَّى عما كانت منهمكة فيه فحسب.. بل تطير مبتعدة عن المكان.

كان المستودع فسيحاً يحتل مكاناً قريباً من مركز المدينة ..ولكن نظراً لاتّساعه فإن من يدخله يشعر بأنه بمعزلٍ عن المدينة..

وكانت الآليات عبارة عن سيارات من أنواع مختلفة صغيرة ونصف نقل.. وقد كانت تابعة لإحدى الجهات العامّة.. جُمعَت بعد تعطّلها في إحدى زوايا المستودع.

كان توقُّفها بسبب أعطال بعضها مهم وبعضها بسيط.. وبطول بقائها في تلك الزاوية زحف عليها الصدأ.. وامتدَّت إليها الأيدي فانتزعت من هذه قطعة ومن تلك أخرى.. مما جعل من المستحيل إصلاحها.

في تلك الزاوية نمت بعض النباتات وتطاولت.. فصارت أشجاراً دخلت خلال الثقوب والفتحات الموجودة بهذه الآليات.. أو من خلال الفراغات بينها أو بين أجزائها.. فصارت غابةً تجمع الخضرة إلى لون الصدأ.

كانت هذه النباتات شجيرات.. معظمها من النوع المجوّف الساق.. وأفرعها ليّنة متباعدة.. منها الخروع والعلندَة والفاصوليا الهبلة.

ولكونها بهذه المواصفات لم تكن مناسبة لتعشيش العصافير.. التي وجدت في هذا المستودع واحة تنقذها من ضجيج المدينة.. ولذلك فقد التجأت إلى الآليات الصدئة ووجدت فيها حاجتها.. وجدت في الثقوب والفراغات الموجودة بها أصلاً.. أو

تلـك التـي تكوّنت بفعل اهتراء المعدن بسبب الصدأ مكاناً مناسباً للتعـشيش.. وامـتلأت تلـك الفـراغات والـثقوب بأعشاش قديمة وحديثة وأعشاش تحت الإنشاء.

كانـت العـصافير مـن أنـواع عديـدة مـنها الزرازيـر و طائـر الـشّحَّيْمة وبوبلَـيْق.. وقد كانت تراقب الحشد عن بعد وهي تُصدر جلـبةً تختلط فيها زقزقة الاستغراب بصوصوة الغزل والوجد التـي تتبادلها العصافير العشّاق المقبلون على الزواج.

وكـان الحشد البشري يتكوَّن في معظمه من أناس تبدو عليهم سيماء الفقر.. فهم من صِغار الموظفين أو العاطلين الذين جاءوا إلى المـزاد و لا أمـل لـديهم في الفوز بشيء.. فقد جاءوا بدافع الفضول لـيس إلاَّ.. أمَّـا أولئك القادرون على المزايدة على هذه الآليات فإن عددهم محدود جدًّا.

بعـد الـضحى بـدأ المـزاد بعـد حضور اللجنة المشرفة عليه.. والتـي أصـرَّت علـى بـيع هـذه الخـردة بالجملة.. ولذلك انسحب بعض المزايدين.. واستقر المزاد في النهاية على أحد المزايدين بعد أن عـرض سـعراً مُـبَالَغاً فـيه شـكّك الـبعض في مصداقيته.. بعد ذلك انفـضَّ الجمـع.. وبـدأت العـصافير في العـودة إلى المكان.. وأخذت تلك التـي توقّفت عن بناء أعشاشها في إتمام عملها.

(2)

كـان قـد مرَّ أكثر من شهر على اليوم الذي انعقد فيه المزاد.. ونـسيت العـصافير الموضـوع تماماً.. وكانـت قـد عقـدت زيجاتهـا ووضـعت بيـضها وفقـس البـيض.. وزخـرت الأعـشاش بالفـراخ الـصاخبة الفاتحـة أفـواهها الـوردية في انتظار ما يجلبه لها الآباء طيلة ساعات النهار من طعام.

وذات عشيّة.. وكانت الشمس ترسم للمبانـي المجاورة ظلالاً طـويلة مُـتداخلة.. فوجـئ حَـيّ العـصافير الكـائن بالخـردة بآليات ضـخمة عـبارة عـن شـاحنات تـتقدّمها رافعـة شرعت في رفع تلك الخردة ووضعها في الشاحنات.. ولم تستغرق العملية أكثر من ساعة.

كانت مفاجأة ألجمت العصافير.. ليس عن التفكير فحسب.. بـل عـن الزقـزقة وتبادل التعليق والنكات.. واكتفت بمراقبة الموقف عن بُعْد.

بعـد أن غـادرت تلـك الـشاحنات بحمولتها المستودع عادت العـصافير إلى حَيِّها.. كان بعض الفِراخ قد سقط من الأعشاش وقد فـارق الحـياة.. وأمكـن التعـرف علـيه.. وبعضها تعرّض للدهس.. وواجـه الآباء صعوبة واضحة في التعرّف عليه.. ولكن أغلب الآباء لم يعثـروا علـى أبـنائهم لا موتـى ولا أحياء. أمّا الأشجار الموجودة

بالمكـان فمـا لَم يتعرّض منها للاجتثاث.. تعرّض للقطع أو لتحطيم أفرعه على الأقل.

اجـتمعت العـصافير وانخرطت في نقاشٍ حادٍّ.. لم يكن نقاشاً بـل كـان جـدلاً عقـيماً.. كانـت الجلـبة الصادرة عن هذا الاجتماع تُوحي بأنها كانت تتبادل اللوم.. وربما الاتهامات عمّا يتعلّق باختيار المكـان أصـلاً للتعـشيش.. أو عمـا يـتعلّق بالهـرب عـندما حضرت الـشاحنات.. وشيئاً فشيئاً أخذت أصواتها تشبه النواح.. وكان يبرز من بينها أصوات تُوحي بشيء من التطمين كأنها تقول:

ـ لعلّ الأعشاش ستعود.. ماذا يفعل البشر بهذه الفراخ البائسة؟

وباخـتفاء الشمس تدريجياً خلف الجبال البعيدة التـي تحتضن المديـنة مـن جهـة الغـرب كان أغلب العصافير قد تَعِبَ من الكلام وظـل قلـيل مـنها.. قلـيل فقـط.. ربمـا أولئك الذين وجدوا جثث أبنائهم يُصدرون صرخات جارحة متباعدة كأنها تقول:

ـ خلاص.. خلاص.. إنّه اليأس.

وتـرد عـصفورة أو عـصفور أو أكثـر بمـا يشبه الهمهمة التـي لعلها تعني:

ـ أنتم محظوظون.. لقد عرفتم مصير أبنائكم على الأقل.

وفي الضوء الخافت المتخلّف عن الغروب.. كان عدد العصافير المجتمِعة في تناقص مستمر.

ولم يَحِلّ الظلام حتى كان الاجتماع قد انفضَّ وساد السكون.

* * * *

المُنْحَدِرون

معظم الخدمات الإدارية والأسواق والمكتبات وصالونات الحلاقة والصيدليات والمستشفيات والمطاعم تتجمع في قاع المدينة.. وهو قاع يتميَّز غالباً بالاستواء.. وذلك أمر مُحَبَّب ومرغوب بداهةً.. ففي الأرض المنبسطة راحة.. وفي الطرق الممهَّدة متعة للمشاة ولمستعملي المركبات على السواء.. ولكنّ الأمور نسبيّة كما يُقال.. فبالنسبة لي لم يكن استواء قاع المدينة مُحبَّباً ولا مرغوباً.. بل كان مُزعجاً إلى حدٍ كبير.. ولم يكن هذا الأمر مُقتصِراً عليَّ وحدي.. فقد اكتشفت أن عدداً لا بأس به من الناس يشاركونني حالة الانزعاج هذه.

كنَّا فئة من الناس تكره الاستواء وتحب المنحدرات.. وقد دفعني حُبي للمنحدرات مثلما دفعهم للبحث عنها في قاع المدينة وتسقُّطِ أخبارها.. وبذلت جهوداً كبيرة في ذلك حتى عثرت على منحدَر لعلّه المنحدر الوحيد.. أو إذا ما توخَّينا الدقة لعلّه أفضلها من حيث درجة الانحدار والموقع ومواصفات أخرى.. تجعله جديراً

بمكانة لائقة بين المنحدَرات.. كان هذا المنحدَر واقعاً بالشارع الْمُحاذي للوادي مجرى النهر الذي جَفّ.. ومجرى السيل أيضاً قبل إقامة السدود عليه.. والذي يشطر المدينة متَّجِهاً إلى البحر.

كان الشارع يسير بمستوى قاع المدينة.. ثم يهبط مائلاً بزاوية ثلاثين درجة أو أكثر بقليل.. وبمسافة ثمانين متراً تقريباً ليسير بعد ذلك في مستوى أفقي آخر حتى يتصل بالشارع المحاذي للشاطئ.. وبعثوري على المنحدَر عثرت على المنحدِرين.. أي المستعملين للمنحدَر.. وهم ليسوا منحدِرين من أصل واحد بالضرورة.. ولكن بينهم وشائج قُربَى واضحة.. تبدو في ملابسهم المتواضعة ووجوههم البائسة التي تجلب - على رأي المثل الشعبي الليبي (أربعة وأربعين يوم قِبْلِيْ).. ونظراتهم المنكسرة.. وتبدو أخيراً - وهذا هو الأهمّ - في سياراتهم المتهالكة.

كان بين أعضاء هذه الجماعة تفاهم واضح.. فعندما يركن أحدهم سيارته على أحد جانبي المنحدَر.. فلابدّ أن يترك مسافة أكبر من المعتاد بينها وبين السيارة الموجودة خلفها.. ويعبر صاحب السيارة الخلفية عن امتنانه بابتسامة عادة حينما يلاحظ ذلك.. فبدون هذه المسافة الذهبية يضطر لانتظار صاحب السيارة التي أمامه حتى يعود.. لأنّ مستخدمي أو مستعملي هذا المنحدَر لا

يعـرفون التقهقـر مـا دامـوا فيه.. فهم تقدميّون بالقانون الطبيعي أو بالجاذبية.

لم يكـن العـثور علـى مكـان بهذا المنحدَر ميسوراً دائماً نظراً لكثـرة مُـستعمِليه.. وحيـنما لا يجـد أحـدنا مكانـاً بالمـنحدَر يضطر لإيقـاف الـسيارة قَـبله.. أي بالجـزء العلـوي من الشارع مُقترِباً قدر الإمكان من بداية المنحدَر.

أما عن دوافع حُبِّنا للمنحدرات فلابد لمن كان عضواً في زمرة المنحدِرين على امتداد العالم من إدراكها من خلال ما تقدَّم.. ولمن لم يتمتع بهذه العضوية بعد يُمكن تلخيص تلك الدوافع في أنَّ سياراتنا إمّا أنها كانت تعانـي من ضعف البطاريّة.. أو من تعطُّل ذلك المحرك الكهربائـي الـصغير الـذي يُديـر المحـرك الكـبير في بدايـة التشغيل.. والـذي لا أعـرف مـا إذا كانت مجامع اللغة قد وضعت تسميةً له أم لا.. ولأنّ تعطُّـلَ هـذا الجهـاز يدفـع للـبحث عمَّـن نسمِّيه باللهجة (الـدَّفّاف).. فسأسمي هذا الجهاز دَفّافاً.. إذن كانت سياراتنا – نحن مجمـوعة مـستعملي المـنحدَر – تعانـي تعطُّـل الدَّفّاف.. أو ضعف البطاريّة.. أو كلتا العِلّتين.

وقـد يتـبادر إلى الـذهن بأنه من الترف ومن قبيل حمل النفس مـالا تطـيق أن يحـرص محـدودو الدَّخْل أمثالنا على اقتناء السيارة..

ولكـنّ الأمـر لـيس كـذلك في بعـض الوجـوه.. ففـي بلاد شاسعة كـبلادنا يـتوزّع سـكانها في قـرىً ومدن معظمها صغيرة ومتباعدة.. يكـون امـتلاك سـيارة شرًّا لابدّ منه.. ففي هذه البلاد تلتهم السيارة نـسبة كـبيرة مـن ميـزانية الأسـرة.. ابتداءً من ثمنها ومروراً برسوم إجـراءاتها القانونية وصيانتها وتشغيلها.. ومع هذا تتحوّل القرية أو المدينة الصغيرة بدون السيارة الخاصة إلى منفىً حقيقي أو تكاد.

كـنت أوقـف الـسيارة في أي جـزء مـن المـنحدَر.. وأؤمّـن الأبـواب وانطلق لقضاء ما جئت لقضائه.. ثم أعود إليها.. وبمجرّد أن أشـغل دائـرة التـشغيل الكهـربائية وأفصل ذراع تغيير السرعات تـنطلق بفعـل الجاذبية.. ثم أُعَشِّق ذلك الذراع.. أو بالأحرى أُعَشِّق بواسطته التروس المخصصة.. وما هي إلا ثوانٍ حتى يدور المحرك.

وذات يـوم أوقفـت الـسيارة بـذلك المكـان كالعادة.. وكنت مـشغولاً جـدًّا.. ولـديّ أمـور كـثيرة أود قـضاءها.. فأكثـرت مـن الانطـلاق مـن السيارة والعودة إليها.. مرّة آخذ منها شيئاً.. وأخرى أعـود إلـيها بـشيء.. وفي واحـدة من تلك المرّات وضعت بالسيارة أوراقـاً وأمّـنتُ الباب.. وهممت بالانطلاق لإحضار بعض الأشياء الأخـرى.. وتحسّـست جيوبـي متذكّـراً المفاتيح.. ولكن يا للأسف فات أوان الحذر.. كانت المفاتيح داخل السيارة.. وأُسْقِط في يدي.

ذهبت إلى ما عزمت على الذهاب إليه.. ثم عدت وشرعت في محاولة فتح الباب بطريقة بدائية.. تتمثل في رفع اليد التي يُفتح بها الباب وإدخال قضيب معدني في الفتحة الموجودة تحتها لرفع ذراع التأمينة.. حاولت وكرَّرت المحاولة.. ورفضت تلك الذراع اللعينة أن ترتفع.. كان الناس يَمرُّون بي دون أن يُعيروني الْتفاتة.. وكان غيري من مستعملي المنحدَر يتوافدون فُرادَى وكل واحدٍ منهم يفتح باب سيارته ويقوم بالخطوات المعروفة وينطلق متباهياً.. ومن كانت سيارته واقفة بعيداً عن بداية المنحدَر لم يكن محتاجاً لبذل جهدٍ كبير.. فما عليه إلاَّ أن يفتح الباب ويستخدم جسمه في الدفع.. يدفع الباب المفتوح بصدره حتى تستلم العجلات الأمامية بداية المنحدَر.. ثم يجلس بالمقعد ويغلق الباب ويُكْمِل باقي الخطوات.

أمّا أنا فكنت أعاني مِحنتي وحدي.. كَلَّت يداي من تكرار نفس الحركة لمدة ساعة وربع.. فأخذت استرق لحظات راحة أتطلّع فيها إلى المارة وخاصة من الجنس اللطيف.. وقد كان الشارع عامراً بهن.. ولكنّ مشكلتي لم تدع لي فرصةً للتأمُّل فكنت أعود سريعاً للمحاولة بعد كل توقُّف.. وكان النهار يوشك على الرحيل والشمس ترسم للمباني ظلالاً متطاولة تهبط الوادي وتزحف

لتستند على ضفته الشرقية.. وحينما يحلّ الظلام ستكون مهمتي عسيرة.. لأنَّ ذلك الجزء من الشارع لم تكن به إنارة.

وبينما كنت منهمِكاً في عملي واليأس يحاصرني والوقت يستعجلني سمعت صوتاً يُحيِّيني.. والْتفتُّ نحو مصدر الصوت فإذا بشاب في العقد الثاني من العمر يقترب مني.. كان يرتدي سروالاً أمريكيًّا وقولف (سترة بلا أكمام) مفتوح.. تحته قميص مزخرف بكتابات أجنبية.. تُزيّن صدره صورة ربما كانت صورة مغنٍ أو لاعب كرة لا أعرف بالضبط.. وتحيط بمعصمه سلسلة على هيئة سِوار ويضع على رأسه قبّعة مزودة بحاجب يمتد إلى الأمام ليمنع أشعة الشمس عن العينين.. وكان يتمتع بوجه يعبر جزؤه المكشوف لي عن براءة ولطف.. ولم أستطع رؤية عينيه على أهمية ذلك بالنسبة لي.. لأنهما كانتا مَخفِيَّتين بالحاجب.

ابتسم وهو يقول:

- مشكلة.. هذي تَبي سَرَّاق سيارات.

- ياريت نلقوا واحد.. انشا الله حتى بالفلوس.

واستلم القضيب مني وحاول أن يرفع الذراع.. وللوهلة الأولى أدهشني.. فقد استخدم طريقة أكثر فاعلية من الطريقة التي

كنت أستخدمها.. كنت أحاول رفع الذراع برأس القضيب في حركة رأسية بينما كان هو يضغط بالقضيب جانبيًّا ويُديره ليدفع - بحركة دورانية - ذراع التأمينة إلى أعلى.. وكاد أن ينجح أكثر من مرَّة.. وحاولتُ أن أُطَبِّق طريقته.. ولو لم تكن يداي متعبتين لربَّما استطعت تحقيق النتيجة المرجوَّة.. وبعد عدة إخفاقات مني ومنه أخرج من جيبه مجموعة من المفاتيح لعلّها أربعة أو خمسة.. جميعها مسنَّنة من جهة واحدة ما عدا مفتاحاً واحداً كان مسنَّناً من جهتين.. وأخذ يجرِّبها متجنِّباً استخدام المفتاح الشاذّ.. فربَّما كان يعتبره آخر أوراقه.. أو كان واثِقاً من قدرته على إنجاز المهمة.. فلم يشأ أن يكشف لِيّ ذلك مفضِّلاً الاحتفاظ بسرِّه.

ونظراً لما كنت أعانيه من ضيق وتعجّلٍ حرَّضته على استخدامه.. لأنَّ مفتاح السيارة أصلاً مسنَّن من الجهتين.. ولم يستجب لي في البداية.. وتظاهر بأنه لم يسمعني مستمرًّا في اختبار المفاتيح الأخرى.. وأخيراً - وبعد تردُّد ملحوظ - الْتفت إلَيّ ووضع المفتاح المطلوب في فتحة القفل وبحركة واحدة ارتفعت التأمينة.. وكأنه صُنِع خُصِّيصاً لهذا القفل.

حينها انتابَني شعوران: شعور بالفرح لانتهاء الأزمة.. وآخر بالضيق والخوف؛ لأن شخصاً آخر مجهولاً بالنسبة لي يمتلك مفتاح

سيارتي رغم أنفي.. بِما يترتّب على ذلك من مخاطر.. وخطر لي بعد أن شكرته وانطلقت بالسيارة أن أستبدل القفل.. ولكنني سرعان ما غيَّرت رأيي.. إذ لم أَرَ في ذلك حلاً مثالياً لهذه المشكلة الجديدة.. فبالإضافة إلى ما يكلِّفني هذا الحلّ من مال.. فإنَّ حاجتي لهذا المنحدَر وكثرة وقوعي في السّهو قد يضعاني في موقف مُشابه لموقفي السابق.. وإذا ما غيَّرت القفل فقد يحول ذلك بين هذا الشاب وبين إنقاذي مرةً أخرى..!

* * * *

الوُجَهاءُ في السُّوْق

(1)

غُلالة من الغبار تعلو الساحة الترابية التـي تقام عليها السوق الأسبوعية المفتوحة.. والتـي تُقام كل يوم جمعة.. وذلك بسبب رياح القبلي التـي بدأت منذ الضحى في إرسال وفودها المتنكرة في صورة نـسائم بحـرية لطـيفة.. بالإضـافة إلى مـا تُـثيره أقدام هذا الحشد من الـناس وتـنقُّلات الأشـياء مـن غُـبار.. وهـذه الغُلالة تُعطي المتأمل لمشهد السوق عن بُعْد انطباعاً بأنه أمام مشهد هُلامي.

كانـت تـصدر عـن هـذا الحـشد المتـزاحم والمتدافع أصوات متداخلة بلهجات مختلفة: مصرية ومغربية وشامية وسودانية وليبية.. اخـتلطت بـضجيج الـسيارات والأغانـي المختلفة العربية والأجنبية والقصائد الشعبية المنبعثة من مكبرات الصوت التـي يستعملها بائعو الأشرطة.. بالإضافة إلى أصوات الحيوانات والطيور التـي جُلِبت إلى السوق.

كـان روّاد الـسوق خلـيطاً مـن الجنسين ومن أعمار متباينة.. يجوسـون خـلال أكـوامٍ مـن الأشـياء المعروضـة على الأرض أو في الـسيارات مـن ملابـس بهـتت ألـوانها بـسبب تكـرار عرضـها في الأسواق الأسبوعية المفتوحة.. أو لكونها مستعمَلة أصلاً.. إلى أشياء أخـرى مـثل بعـض الـسلع التموينـية والأدوات المنْزلية وقطع غيار السيارات والأشرطة والشتول والخضروات والفواكه والأعلاف من حـبوب وحـشائش جافّـة.. والحـيوانات والطـيور مـثل الـدجاج والحمام.. ولم يخضع عرض هذه الأشياء لتنسيق أو نظام صارم.. إذ لم يَخْلُ الأمر من تداخُل.

(2)

في وسـط السوق تقريباً وفي فراغ بين سيارتين (بيجو امشمع) استُعملتا كمحلـين متـنقلين.. جلـس ثلاثـة أشـخاص علـى ثلاثة صـناديق بلاسـتيكية فارغة مما يستعمل في نقل الخضروات والفواكه مكـوِّنين مـا يـشبه الدائـرة.. ثلاثـة أشـخاص لا يملـك المـرء الْمُلِمُّ بأمـورهم إلاَّ أن يـندهش مـن اجـتماعهم.. كـان أكبرهـم سنًّا الحاج بـوزيد.. مـن أبـرز وُجهـاء المنطقة.. والذي يُناهز الستين من العمر مُـرتدياً (جَـرْدَه الجبالي) وطاقيته البيضاء ووجهه يشعُّ براءةً ونقاءً.. وهـو يُمَـرِّر إبهامـه علـى رؤوس أصابع يده مُبتدئاً بالخنصر ومنتهياً

بالسبَّابة في كل مرة كلازمة حركيّة مُميّزة له.. أمَّا الاثنان الآخران فهما في العقد الرابع من العمر.. وهما الأستاذ أحمد بلحيته الكثّة.. يرتدي بذلة عربية ويضع في معصم يده اليمنى ساعة.. وهو يعمل منذ تخرّجه كمدرس احتياط.. والمهندس رجب وهو مهندس زراعي أُحِيل إلى قطاع التعليم بناءً على آخر التعديلات الإدارية.. وهو عاطل مقنَّع.. لم يَقُم بأي عمل مثمر لا في مجاله الأصلي ولا في مجاله الجديد.. يرتدي لباساً إفرنجيًا عاديًا.. ويلفّ حول سبابته سلسلة فيها مفاتيح سيارته (البي إم) الواقفة على مقربة منهم.

أمّا ما يدعو للدهشة من اجتماعهم فهو ما يكنّه كل واحد منهم من كراهية للآخر.. مما يجعل اجتماعهم - ناهيك عن تحاورهم - من الأمور المستحيلة .. فمنذ فترة ليست بالبعيدة وقع نزاع خطير بين الأستاذ أحمد والمهندس رجب.. ولأنهما ليسا من قبيلة واحدة كاد النِّزاع أن يعصف بالوفاق القبلي الذي يسود المنطقة.. وسبب النِّزاع أن الأوّل اشترى من الثاني كميّة من المخدِّرات.. وماطلَه في سداد ثمنها.. ولم تفلح محاولات رجب المهذّبة والتي حرص فيها على حسن التقاضي في حصوله على حقّه.. مما دفعه إلى اللجوء إلى العنف.. فأقدم على إحراق سيارة أحمد وحاول إيذاءه بالضرب.. وأسرع مجلس العُقَلاء بقيادة الحاج بوزيد باحتواء الموقف.. وتقدم

بـالاقتراح الـذي جرَّ على الحاج بوزيد غضب الاثنين معاً.. والذي يقـضي بـأن يُخـصم ثمن السيارة من الدَّين.. وأن يسدد أحمد المبلغ المتبقّي.. وأسلوب التحكيم العُرْفِي هذا يوفّر لأمثال هذين المتنازعين خدمات جليلة.. لعلّ إحداها إمكانية الحصول على شهادة الخلوّ من الـسوابق متـى أراد أحـدهم ذلـك.. لأنَّ هذا الأسلوب يُخفي معالم السجلّ الإجرامي للأشخاص.. إذ لا تترتَّب عليه أية وثائق جنائية.. بعكـس مـا يحدث حين اللجوء للقضاء.. إلاَّ أن كل تلك الميزات لم تشفع لمجلس العُقَلاء عامة.. و لا للحاج بوزيد خاصةً.. ولم تُقدَّر من قبل هذين المتخاصمَيْن التقدير اللائق.

وأمـا سـبب هـذا الاجتماع المدهش فيمكن تخمينه من طبيعة الحـوار الـذي يدور بينهم.. وهو حوار خافت ويُوحي بأنَّ في الأمر صفقة.. كما أنَّ المعلومات المتداوَلة بالمنطقة حول الحاج بوزيد تؤكّد هـذا الاستنتاج.. وهكذا فالتجارة ـ بالإضافة إلى كَونِها تُمثّل تسعة أعـشار الـرزق كمـا هـو وارد بالموروث ـ فإنها تُحقّق ما لا تُحقّقه وحـدة المعتقَد أو الموطن أو العِرْق من تآلفٍ وتسامح.. وهي بذلك جديرة بلقب جامعة القلوب والجيوب..!

(3)

كان الحاج بوزيد قد نجح في إدخال كميّة مُجزِية من الهيروين إلى المنطقة.. فبفضل علاقته الأخوية الطيبة بأشخاص خارج الحدود الوهمية.. وبآخرين داخلها استطاع إدخال هذه الكميّة كما لو كان يقوم بإدخال كميّة من الأرز أو من الشاي الصيني الأخضر.

ولم يكن ذلك سِرًّا.. فنظراً لسنِّه ومكانته الاجتماعية المرموقة في القبيلة.. وبفضل الترابُط الجميل - كما يصفه دائماً - والسائد بهذه القرية.. والذي يمتنع بسببه رجل الأمن فيها عن التعرض لأي مخالف.. وخاصَّةً إذا كانت المخالفة مما يَمَسُّ المجتمع و لا يَمَسُّ شخصاً بعينه.. لكلّ ذلك لم يكن الحاج بوزيد متكتِّماً على أمر هذه الكميّة.. بل تعمَّد ترويج الأخبار بشأنها مُمتدِحاً الصنف وجودته كنوعٍ من الدعاية.. وهذه الجلسة هي أولى ثمار هذه الدعاية.. لقد كان الأستاذ أحمد والمهندس رجب حريصَين على الفوز بهذه الكميّة.. ولو اضطرّهما ذلك إلى توحيد جهودهما.. ودفن خلافاتهما.. وتنقية الأجواء بينهما.. ولِمَ لا وإقامة التكتّلات وتنقية الأجواء من مظاهر العصر البارزة..!

(4)

عرضا عليه ضعف المبلغ الذي دفعه فيها.. فحدّق في الزّحام.. ثم رفع رأسه تدريجيًا وثبّت نظره هناك على الجزء البارز من البحر من خلال الفرجة بين قمم الجبال المتقاطعة.. عرضا عليه ثلاثة أضعاف.. تفحّص بعينيه امرأةً جميلة يشعُّ الجزء البارز من فَخذها من فتحة تنُورتها بالإغراء.. كانت تقف أمام إحدى السيارتين اللتين يجلسون بينهما لكي تشتري بعض الخضر.. انفرجت شفتاه عن ابتسامة وغمز لهما لكي يُشاركاه تأمُّلاته.. دُهِشا لهذا التجاهُل لعروضهما.. فعرضا عليه أربعة أضعاف.

- ما زال.

هكذا ردّ باقتضاب.. ثم غرق في موجة من الضحك وهو يشير إلى مواطن سوداني في الجهة المقابلة يقوم ببيع الأشرطة المسموعة.. كان السوداني قد وضع بالمسجل (غناوي عَلَم) وكان يمتدح المغني - على حَدّ وصفه - بحماسٍ شديد.. ولكن بلهجة سودانية صِرْفة.. تساءل الحاج بوزيد وهو يضحك:

- هذا يفهم في ها الكلام اللي يبيع فيه؟

ازدادت دهشتهما.. خشيا ضياع الفرصة.. قال رجب:

- اتبيع بست أضعاف.

- الثمن الموعود بيه أكبر.

هكذا جاوبهما وهو يتأمَّل البحر البارز من خلال الفرجة بين الجبال المتزاحمة في الأفق.

تبادلا النظرات ثم نهضا للتشاور.. جلسا بسيارة رجب وكان هاجسٌ وحيدٌ مُسيطراً عليهما.. فقد تذكّرا قصة ذلك الصحابي الجليل.. والذي برغم تلقيه عروضاً مُغرية من التجار بمكة بلغت أضعاف أضعاف ما دفعه في تجارته.. فإنه آثر التصدُّق بها.. لقد كان يردّ على تلك العروض بما معناه: الثمن الموعود به أكبر.. كان يقصد أنّه سينال بتصدُّقه بتلك التجارة عشرة أمثالها من الثواب وفقاً للاعتقاد بأنّ الحسنة بعشرة أمثالها.

استبعد رجب أن يتصدّق الحاج بوزيد بهذه الكميّة لفقراء المسلمين.. أو بالأحْرَى (مساطيل) المسلمين.. ولكنّ أحمد لم يستبعد ذلك فهو يرى بأن أصحاب الملايين مولعون دائماً ببناء المساجد.. بالرغم من أن الحصول على المليون بالطرق الحلال لا يتم إلاَّ بمعجزة.. فهو يكاد أن يكون من الأمور المستحيلة.. وتذكّر أحمد أنه سمع أحد أبناء الحاج يرجِّح تخلي والده عن هذه التجارة.. ولهذا فإن أحمد كان يخشى أن تكون هذه الصفقة هي

الـصفقة الأخـيرة.. أو ربمـا مـا بعـد الأخيرة.. فلعلّها هي الصفقة التـي سيقدّمها الحاج كتكفير منه عمّا سبقها.. ومما زاد من مخاوف أحمـد ورجـب مـا لاحظه الأوّل من أنَّ لازمة الحاج بوزيد الحركية ربمـا كـان يقـصد بهـا التـسبيح.. فهـي طريقة يستخدمها الْمُصلّي عندما لا يكون لديه مسبحة.

(5)

هـبطا مـن السيارة وعادا إلى الحاج يعتريهما تخوّف شديد من وقـوعه في نـوبة تقـوى مُفاجـئة تؤدي إلى خسارتهما هذه الصفقة.. وهـو مـا يعنـي بالنسبة لهما الكارثة.. كانت رياح القبلي قد كشفت شـيئاً فـشيئاً عـن وجههـا الحقيقـي.. فعلقـت ذرات الغـبار بـشعر الرؤوس والحواجب واللحى والشوارب وأطراف الأهداب.

ما أن جلسا قُبالته حتى بادرهما متسائلاً:

- كم الساعة يا أحمد؟

- احداش الا ربع.. ليش؟

- خايف تفوتني الجمعة.

بـرزت عـيونهما في محاجـرها وتـبادلا نظـرات يـشعّ مـنها

الخوف.. وبعد لحظة فَرَدَ رجب تسعة من أصابع يديه في إشارة مُختلَسة إلى أحمد.. فعرض على أثرها هذا الأخير على الحاج تسعة أضعاف.

ابتسم الحاج ابتسامة إشفاق وسخرية.. وكأنّه لا يرى فائدة من هذه العروض.. وهزَّ رأسه بالرفض.. وكأنه يلقي بآخر أوراقه أسرع رجب قائلاً:

ـ عشرة.

تساءل الحاج بوزيد ببرود:

ـ كاش؟

ردا وهما يحاولان إخفاء فرحتهما:

ـ كاش.. كاش طبعاً.

ـ مبروك.. اجعنكم تربحوا..!

* * * *

صَـــلاح

كـان الـوقت الـساعة الثالثة بعد الظهر من أحد أيام الخريف الأخـيرة.. حينما دخلت سيارة (البيجو) العائلية المتجهة غرباً مدينة القـبة مـن مدخلـها الـشرقي وهـي تـتهادى بـركابها الأربعـة.. ولمّا وصـلت إلى حـيث كان يوجد القوس الأثري والذي أزيل في مطلع الثمانيـنات.. كان عليهم أن يستقبلوا راكباً خامساً.. توقّفت السيارة مبـتعدة عـشرين متراً تقريباً عن المكان الذي كان يقف به مما اضطرّه للهـرولة.. فـتح الـباب الخلفـي الأيمن وانتظر حتى ترك له الراكب الجـالس جهـة الـباب فسحةً قبل أن يجلس.. كان في منتصف العقد الرابع من العمر.. نحيلاً أكرت الشَّعر.. تعرَّضت أذنه اليُسرى لمحاولة صَلْم ذهبت بجزء منها.

ولأن الـوقت مـن الـسنة كـان أواخـر الخريف.. فقد ظهرت بوادر الشتاء في الطقس وفي الأفق أيضاً.. ولذا فقد كان يرتدي جبّةً عـسكرية بَهـت لـونُها.. يتدلّـى طربوشـها خارجاً من وعائه.. تحتها قميص مخطَّط من ذلك النوع الذي يشبه البَرنوس المغربي.. ويرتدي

سـروالاً أمـريكيًّا قـديماً.. أمـا حـذاؤه فقـد ظهـرت علـيه آثار سوء الاستعمال وقد تحول إلى ما يشبه (الشبشب) لسهولة خلعه ولبسه.

ومـا أن اعـتدل في جلـسته واسـتأنفت الـسيارة رحلتها حتى مسح الرُّكّاب بنظرة استعراضية سريعة وحيَّاهم قائلاً:

- صباح الخير.

ولم يأبه لردّة فعلهم التـي تراوحت بين ابتسامة وقهقهة تحاول التملّص من الكتمان.. فأردف:

- اسمـي صـلاح.. هـذا اسمـي في الـبطاقة.. لكـن الـشايب امسمِّينـي الخراب.

وابتـسم الـرُّكّاب.. ومـنهم مـن طَـوَّر الابتـسامة إلى ضحكة مُجلجِلة.. وتمتم السائق وهو يبتسم:

- خراب.. لا حول ولا قوة إلاَّ بالله.

* * * *

كانت بداية الرحلة من درنة.. وسائق السيارة هو الحاج عطية الله الـذي ناهـز الخمـسين من العمر.. واشتعل رأسه وشاربه الكَثّ شـيباً.. وقـد مـارس هـذه الحرفة على فترات متقطّعة.. فقد مارسها

بالإضافة إلى عمله كشرطي.. وكان يعمل على الخطّ السريع ـ كما يسميه أبناء هذه الحرفة ـ فكان يحمل الرُّكّاب من بنغازي إلى درنة وبالعكس.. وأحياناً يمتد مسار عمله إلى مدينة طبرق.. وقد تركها في أواخر الثمانينات بعد صدور تلك القرارات الشهيرة التي تمنع الازدواجية في العمل.. وعاد إليها مرة أخرى بدافع الحاجة أولاً.. وثانياً بدافع الحنين إلى الإمساك بعجلة القيادة وثرثرة الرُّكّاب وشخيرهم أحياناً حينما يختصرون المسافة بالنوم.

ثم عندما تقدم به العمر وشعر بضعف عام في الحواس وخاصّةً حاسة الإبصار.. قَرَّر تركها للمرة الثانية.. ولكنّ صاحبيه القديمين (الحاجة والحنين) ألَحّا عليه ليعود إليها مُجَدَّداً.. على أن تقتصر مشاويره على المسافة بين درنة والبيضاء ولا تتجاوزها أبداً.

أمَّا الرُّكّاب فكانوا ـ بالإضافة إلى صلاح ـ أربعة.. حيث كان يجلس بالمقعد الأمامي مواطن مصري تجاوز الأربعين من العمر.. يعتمر بعمامة رمادية ويرتدي جلباباً كُحلياً تَبْرُز من فتحة ياقته صديرية.. ولعلَّه لم يكن يرتدي سروالاً البتّة.. وبالمقعد الأوسط يجلس شابّان أمردان بينهما تشابه في ملامحهما لكأنّهما أخوان.. أكبرهما يرتدي ملابس أمريكية.. والأصغر يرتدي جلباباً أبيض وسروالاً عربياً قصيراً.. ويضع بمعصم يده

اليمنى ساعة.. وبالمقعد الخلفي مواطن سودانــي يرتدي الملابس العصرية المعتادة.

وفي خَلطـة كهـذه كـان لابـد مـن معجزة لكي يتولد حوار.. ولـذا فقـد خَيّم الـصمت علـى الـرحلة مـنذ انطلاقها.. ولم تنجح محـاولات الـسائق بخـبرته المتميـزة في دفع الرُكّاب لتبادل الحديث.. فاضْـطُرَّ لمقاومـة الـصمت بـالترنُّم لنفـسه بمطلـع (ضَـمّة قَـشّة).. وبانـضمام صلاح إليهم ولتقديمه لنفسه بتلك الصورة التـي لا تخلو مـن جـرأة.. اعـتقد الـسائق بأنـه قد عثر على من يستطيع تحقيق ما عجز هو عن تحقيقه.

لكـز الـشاب الجـالس بجـواره والمرتدي الملابس العربية لكزة خفيفة قائلاً:

ـ عطينـي سبسي.

ـ ما معايش دخان.. ما اندخنش.

ـ فَكَّك الله.

هكذا عَلّق.. وأشار إلى الشاب الثاني:

ـ وأنت؟

وهنا أدخل الشاب ذو الملابس الأمريكية يده في جيبه وأخرج

علبة سجائر من نوع (رياضي).. بها ثلاث سجائر قدم إليه واحدة.. تـناولها وتأمَّلـها باحـثاً عـن العلامة التـي تُبَيِّن مستوى الجودة.. ثم بلّلها بلسانه ووضعها بفمه.. وأشار إلى من قدّمها إليه بأن يشعلها.. ولكن هذا اعتذر بأنه لا يحمل ولاّعة فعقّب على اعتذاره:

ـ ما عندكش ولاّعة؟! وبيش ماشي؟

وقهقه الركّاب والسائق الذي أسرع بإنقاذ الموقف بأن مدّ إليه علبة كبريت.

ونظـراً لكـون عَـدّاد الوقـود مُعطَّـلاً.. فقد خشي السائق أن تكـون كمـيّة الوقـود غـير كافية لإتمام الرحلة.. فعرَّج على المحطة.. وأدركـوا بعـد انـتظامهم في الطابـور أنَّ الكهرباء مقطوعة.. وعندما تـساءلوا عـن المـولّد الكهربائي الموجود بالمحطَّة أُخْبِروا بأنه مُعطَّل.. فأخـذ الـسائق في الاعتذار للرُّكّاب عن عدم التزوّد بالوقود في بداية الرحلة.. وعَزا ذلك الإهمال إلى ما صار يُعانيه في السنوات الأخيرة مـن حالات ذهول وسهو ونسيان.. ربما بسبب التقدُّم في العمر.. أو ربما بسبب مشاغل الحياة والجري وراء لقمة العيش.

في المحطَّـة ـ وقـتلاً للانـتظار ـ أدار صـلاح دَفَّـة الحـديث.. تحـدّث مـع المـصري وكـان يـناديه بكلمة خالي.. تارةً بتفخيم الخاء ويقصد بها المعنى الظاهر.. وأخرى بترقيقها ويقصد بها معنىً آخر..

وتطـرّق بالحـديث إلى الـسَّدّ العالـي.. لم يكـن المـصري مُتحمّـساً للحديث عن تلك المرحلة:

- سِيبْنا من السياسة.. السياسة بَحْر.. عايزين ناكُل عِيش.

كـان يُـرَدِّد بـين الحـين والآخـر.. الْـتفت صـلاح بعـدها إلى الـسوداني بالمقعـد الخلفـي وتحـدَّث معـه عمَّا يُمكِن أن يشغل بال الـسوداني: مـن الحـرب في الجنوب إلى مصاعب الرحلة من الحدود الـسودانية الليبـية إلى اجدابـيا أو بنغازي وما شابَه ذلك.. استغرقت تلـك الأحاديـث فترة من الزمن ولم تأتِ الكهرباء.. فاضْطُرَّ السائق للمغامرة بالتحرّك.

وبين تذمّر وتأفف تغيَّر مجرى الحديث كما بدا للرُّكّاب.. فقد تحـدَّث صـلاح عـن شـبابه.. عـن سـنـي الدراسة وكيف كان طالباً ذكـيًّا.. ذكـر كـيف اسـتطاع أن يجـيب عـن سؤال عِلْمي لا يستطيع أذكـى طلاب هذا الجيل - على حَدّ تعبيره وهو يشير إلى الشابين - أن يُجيبه.

- أيشنو ها السؤال؟ تساءل ذو الملابس الأمريكية.

كان السؤال يدور حول كيفية التميز بين قضيبين مُتماثلين في الـشكل.. أحـدهما مغناطيسي والآخر حديدي دونما الاستعانة بأي شيء آخر.

تساءل ذو الملابس العربية:

- كيف تفرق بينهن؟

- أنا جاوبته لكن ما نقولّكش.. اعرف بروحك.. موش هذا المهم.. المهم الفكرة اللي نبي انقولها.

وأسرع بالانتقال إلى الفكرة التي أورد من أجلها هذه الحكاية.. وهي تتلخَّص في جعل مستوى المستودعات أعلى من مستوى خراطيم الصرف في المحطات.. فينساب الوقود دونما الحاجة إلى مضخّات.

- لكن ها الفكرة امعا انها تفكّنا من مشكلة الكهرباء وتوفّر ع الشركة.. لكن يقولك من اللي قدّمها.. صلاح الخراب.. معناها ما يصيرش منها.

وأخذ يستشير الركّاب في الفكرة.. ولم يُخْفِ هؤلاء ولا السائق إعجابَهم بها.. ولكن السائق أراد أن يُدلِي برأي مخالف بعض الشيء.. فهو يرى أنَّ الفكرة لبساطتها ربما دارت بأذهان المسؤولين المعنيين.. ولكنَّهم لم يُنفِّذوها لسببٍ ما.

- ايشنوا ها السبب؟ تساءل صلاح.

- أكيد فيه سبب.. وإلاّ كيف ما طبقوهش من قبل؟ أكيد فيه سبب فَني مثلاً.

ردّ السائق وهو يُحاوِل أن يتجنّب في اللحظة الأخيرة حرباء تحاول عبور الطريق.. ولم تنجح محاولة الحرباء.. لأنّ محاولة السائق لم تنجح أيضاً.. فقد مرَّت عليها العجلتان اليُسراوان.. ولاحظ الركّاب بما فيهم صلاح ذلك.

- هذي نتيجة الغِشّ والاختفاء.

علّق صلاح وقد تهدَّج صوته.. وتساءل الرُّكّاب بنظراتهم عمّا يقصده فاستطرد قائلاً:

- انعم.. لونها كيف لون الطريق.. تحساب روحّا صادفة الراي.. لو كان خلّت لونها المخالِف راهو شافها السوّاق وتفاداها.

كانت ملامح وجهه تنمّ عن حزن حقيقي وهو ينظر عَبْر الزجاج الخلفي.. ثم ساد الصمت بين الرُّكّاب ربما للمرة الأولى بعد انضمامه إليهم.

* * * *

قطع العسكري ببوابة (لَمْلُودة) صمتهم وهو يسألهم عن أوراقهم.. أخذ يستعرض بطاقاتهم وهو يتفحّص وجوههم مُقارِناً بينها وبين الصور.

- عطية الله وين؟ هو انت يا سوّاق.. وين احسين؟ ونظر إلى المصري.. انت؟..آ.. أيمن؟.. مُشيراً إلى ذي الملابس الأمريكية.. انت؟.. أنس؟ مشيراً إلى ذي الملابس العربية.. صلاح؟ مشيراً إلى صلاح.. محمد؟ مشيراً إلى السوداني.. وأعاد البطاقات إليهم وأذِن لهم بالتحرُّك.

بعد استئناف الرحلة كان محمد أول المتكلّمين.. تساءل عن الأكشاك التي تبرز في أماكن متفرِّقة على جانبي الطريق وقد كتبت عليها عبارة (إزالة بعد أسبوع).. كان يريد معرفة معنى ذلك.. ولماذا لم يُكتب التاريخ الذي يبدأ منه حساب الأسبوع.. وتولّى صلاح التوضيح.. فذكر كيف أنَّ هذه الأكشاك يجب إزالتها.. ولكنّها ما زالت تقاوم قرار الإزالة مستغلّةً غياب التاريخ.. أي التاريخ الذي يبدأ منه الحساب.. بينما القوس الأثري - الذي كان يقف هو (أي صلاح) بالقرب من مكانه - لم يقاوم شهوة الهدم لحظةً واحدة.

- ربما هاذين قاومن لأن أصحابهن دافعوا عليهن.

هكذا فَسَّر أيمن الموقف.

- والقوس صاحبه التاريخ.

ردّ أنس متشجِّعاً.. وضحك الجميع مردِّدين هذا التعبير.. فاستطرد:

ـ والـتاريخ مُدافع ضعيف.. تعرفوا مرّات نطالبـوا بالـمحافظـة ع القِـيَم ونـستهينوا بالمبانـــي والآثـار.. القِـيَم يمكـن تجديـدها واعادتّـا.. الإسلام أقدر يكوِّن قِيَم جديدة في عشرين سنة تقريباً.

أكمل أيمن:

ـ صَحّ.. لكن المبنى الأثري اللي يتهدَّم لا يمكن يرجع.

ردَّ صلاح وكأنّه فُوجِئ بأنَّ ينحو الحديث هذا الْمَنْحَى:

ـ فعلاً يا أستاذ أيمن.

ثم اتَّجه بكلامه إلى عطية الله:

ـ هلبت الشَّيل يا حاج عطية الله.. نسيت البنْزينة.

وضـع عطـية الله يـده علـى جبهته متذكّراً.. فقد وقع ضحيّة الـسهو مرَّة أخرى.. وكانوا قد تجاوزوا منطقة الأبرق التـي بها محطة الوقـود.. وتجـاوزوا أيـضاً مـنطقة المطـار.. ولاحت في الأفق بعض أطلال شَحّات القديمة.. أي (قورينا).

* * * *

أخـرج عطـية الله علـبة السجائر وهي من نوع (أطلس).. وهو

نـوع من السجائر أرخص سعراً من (الرياضي) وأقلّ رَواجاً منه.. مَرَّر العلـبة علـى الـرُّكّاب.. فأخـذ كـلّ مـن صـلاح واحـسين وأيمـن منها سـيجارة.. ولم يشاركهم في ذلك محمد ولا أنس.. وبعد أن وضع عطية الله سـيجارته بـين إصـبعيه متهيّـئاً لإشـعالها.. سـأل صـلاح عن علبة الكبريت.. حاول صلاح بأن يقنع عطية الله بأنّه قد أعادها إليه.. ولكنّ الـسائق والـرُّكّاب اسـتبعدوا حـدوث ذلـك.. فشرع صلاح في تفتيش جـيوبه وعثـر عليها أخيراً.. وبعد أن أشعل سيجارته وأشعل للآخرين أعادهـا إلى عطية الله وهو يتساءل عن آلة التسجيل ما إذا كانت صالحة للعمل أم لا.. ولماذا لم يُشغّلها عطية الله حتى تلك اللحظة.

- المسجل يشتغل.. لكن انا سواق ع الخط من السبعينات.. تحق في ها المكان..؟

كـان عطـية الله يـتحدَّث وهـو يُـشير إلى الفـراغ أسـفل آلـة التسجيل واستطرد:

- هـا المكـان كـان امعـبّا شرطان.. كنت انبحِّت في المراية ونحطّ الشريط ونا عارف أيش المطلوب.

ردّ صلاح:

- وتَوّا كذا بَحِّت في المراية وحطّ الشريط المطلوب.

هَزّ عطية الله رأسه يائساً:

- ما نقدرش.. المراية امغبّشة.. تَوّا فيه لَخْبطة في الدَّوق.. لكن إن كان عندك شريط هاته.

وهنا دخلوا (البيضاء) وقطع احسين حوارهما مشيراً إلى ناحية اليمين:

- نَزّلني اهْناك.. قُدام شويّا.

وأخرج من جيبه ثلاثة دنانير هي الأُجرة ليمدَّها للسائق.. ففوجئ بصلاح يصيح فيه بانفعال:

- لا يا خالي.. لا يا خالي احسين.. لا يمكن.

وأخذ يُقْسِم بالطلاق وباليمين بأن يردّ حسين نقوده إلى جيبه لائماً إياه على تجاهله هذه العِشْرة التي تكوّنت خلال الرحلة واعداً بأنّه سيدفع الأُجرة نيابةً عنه.. وكانت ملامح وجهه تعبِّر عن انفعال بما يقول.. صافحه احسين مودِّعاً إيّاه بحرارة وهو يدعو له بالتوفيق بجاه السيّدة والحسين.

أشار صلاح على عطية الله بالتعريج على محطة الوقود.. وبينما هم بالمحطة شاهدوا الْمُنتِج المكلف بتحصيل ثمن الوقود وهو يقوم ببسط جلد خروف ليجلس عليه فضحك صلاح وهو يقول:

- لّما انشوف أي نَطْع نذّكر موقف.. إيحيا قاعد؟[1]

وكـرر السؤال متوجِّهاً به إلى الشابَّين المنذهلَين.. وفسّر عطية الله لهمـا ما يقصده بهذا السؤال.. وأجابه بالنفي نيابةً عنهما.. ولَمّا تأكَّد صلاح من غياب (يحيي) أندفع يروي إحدى مغامراته الغرامية الماجـنة مـع امـرأة في مقتـبل العمـر.. كانـت تدعوه إلى شقّتها وهي تدّعي بأنها عَزباء وتسكن مع أخيها.. وكانت الإشارة الْمُتَّفَق عليها عـبارة عـن جِلْـد خـروف تُعلّقـه بالشُّرفة.. ويكتشف بعد فترة أنها ليـست بعَزباء بل متزوِّجة.. وأنَّ من تدعوه أخاها ما هو إلاّ زوجها المخـدوع.. وبالـرغم من انقطاعه عن زيارته لها فيما بعد.. فقد ظلّ يذكـر لفـترة طـويلة أنّـه كـان كُلّما مَرَّ بالشارع شاهد ذلك (النَّطْع) معلَّقاً بالشُّرفة.

وهكـذا بلغـوا محطّة سيارات الركوبة العامة (الأُجرة) بوسط المديـنة.. وكـان علـى الـرُّكّاب - ما عدا صلاح - الهبوط بها.. ولم يدفعـوا شـيئاً نـزولاً عـند رغـبة صـلاح وإصراره.. فقد وعد بدفع الأُجـرة نـيابةً عـنهم.. وعـرف هؤلاء بأنَّ صلاح يعتزم الذهاب إلى

---

(1) ايحـيا قاعـد : سؤال يطرحه من يود الخوض في ذكر أمور مما يخدش الحياء.. ليتأكد من عدم وجود اعتراض على ذلك.

الْمَـرْج لزيارة أخته الوحيدة.. وأنه مشتاق إليها بدرجة لا تُوصَف.. فهـو لم يـرَها مـنذ أسـبوع.. أَكْبَـرَ الرُّكّاب فيه هذا الشعور وودّعوه بالعِـناق.. وكـان تأثُّر عطية الله بهذه المشاعر واضحاً.. فقرَّر إيصال صـلاح إلى الْمَـرْج حتـى و إن كـان هـو الـراكب الوحـيد.. ودعاه للجلـوس بالمقعـد الأمامي.. ولم يكن هو الراكب الوحيد فقد انضمَّ إلـيه مواطـنان مـصريان مـنطلقان إلى مـنطقة قَصْر ليبيا.. وانطلقت الـسيارة مُخَلِّفـةً وراءهـا مديـنة البيضاء سالكةً طريقاً تجتاز أحراش وادي الكُـوْف وغاباتـه الطبيعـية.. وعـند بلوغهما منطقة قَصْر ليبيا حـيث يجب أن ينْزل المصريان وأرادا أن يدفعا الأُجرة - وهي دينار عـن الـراكب - جُـوبِها بمعارضـة صلاح.. وأفهمهما السائق بأنَّه لا حاجة للدَّفْع.. فصلاح قد حجز السيارة لنفسه على طول الرِّحلة.. هـبطا وهما يدعوان له بأن يُجَنِّبه الله أولاد الحرام.. وأن يجعل له في كل خطوة سلامة.. وأن يُقدّره الله على فعل الخير دائماً.

وباسـتئناف الـرِّحلة أخـذ صلاح بالتحدُّث عن صِهْره (زوج أخـته المـتوجِّه إلـيها).. إنـه رجـل خطـير - علـى حَدّ تعبيره - من مُحْدِثـي النعمة أو الثروة.. تولَّى إدارة أحد الأسواق الشعبية.. فلمّا ثَبت عليه عجز عُوقِب بتوليته إدارة إحدى الْمُنشآت.. وعندما ثَبت عليه عجز آخر عُوقِبت الْمُنشأة بالإقفال.. واختتم حديثه قائلاً:

- وتَـوّا دايـر قَـصْر ضـخم.. وامعلّـق ع المدخل كلمة (هذا من فـضل ربي).. هذا سَرّاق والسرقة من السَرّاق حلال.. يعنـي نا ما نيش غلطان.. صَحّ؟

وبعـد مـسافة قـصيرة اسـتغرق في النوم وعطية الله ينظر إليه بحنوّ.. وقـد قـرَّر بيـنه وبـين نفـسه إعفـاءه من جزء من المبلغ رغم حاجته المُلِحّة لكل قرش.

اسـتيقظ حـين بلـوغهما المَـرْج.. وحينما تعرّف على المكان أخذ يردد:

وبنّوا عَقاب اخْيام في الشَّلْيُوني[1] مـع كـل فَجْـوَة رِيْحـّـن سَـفّاية
وعـاد صَرفَم تقطير بالرَّسْيُوني[2] وعـايلاتّم تحـت الخـيام كـبايا

فردَّد عطية الله مطلع (ضَمّة القَشَّة) الشهيره هذه[3]:

يالعَيْن يا بَكّاية مِن يَوماً معَ غيْرك قرَن سِهْراية أَنْسَيْه خَيْر لِك

(1) الشّليوني: مُنحدَر قرب مدينة المرج.

(2) الرسـيوني: مـا يُقـدّم عـادة للمنكوبين من مساعدات غذائية.. وهي كلمة إيطالية تعنـي النصيب من التموين.

(3) ضَـمة القَـشة: لـون من ألوان الشعر الشعبي.. وهذا المطلع والبيتان المذكوران قبله مـن (ضـمة قَـشة) للـشاعر الشعبـي الكبير عبدالسلام الحرّ.. يتأسّى فيها بزلزال المرج القديمة.. والذي تعرّضت له في مطلع الستينيات.

ولاحت إلى يسارهما بعض المحلاّت.. برز من بينها مطعم فاقترح على عطية الله أن يُعرّج عليه.. وبينما كان هذا الأخير يتَّخِذ لسيارته مكاناً مُناسباً ويطفئ المحرك.. كان صلاح قد أسرع بالهبوط قَبله وغاب في المطعم.. ثم خرج بزجاجتي مياه غازية نوع (مرادة) وشطيرتين بالتّن.. ناوَل عطية الله - الذي كان مُستنِداً على مُقدّمة السيّارة - إحدى الزجاجتين ووضع أمامه الشطيرتين.. وسكب صلاح في جَوفه ما في الزجاجة الثانية.. وانْسَلَّ بها بصورة مُذهِلة.. افتقدَه عطية الله بعد أن كاد يأتي على الشطيرة الأولى ورأى الشطيرة الثانية لَم تُمسّ.. بحث عنه بعينيه.. أخيراً خُيّل إليه أنه رآه في نهاية الشارع وهو يتعلّق بسيارة نِصْف نَقْل من الخلف.. وانطلقت السيارة مُبتعِدة بدرجةٍ عرف منها عطية الله بأنّه لا يستطيع أن يُناديه أو أن يلحق به.

وهكذا أُسْقِط في يده.. فكّر في الليل الذي بدأت طلائعه في الظهور في الأفق.. كيف له أن يقطع كلَّ هذه المسافة ليعود من حيث أتى..؟ كيف لعينيه الضعيفتين تَحَمُّل أضواء السيارات الْمُبْهِرة؟ فكّر في المبلغ الذي ضاع.. وهو وأسرته في أَمَسّ الحاجة إليه.. اغرورقت عيناه بالدموع.. فيما شرع في قَضْم الشطيرة الثانية.. خرج النادِل من المطعم واقترب منه بدون أن يُلاحظه.. كان يريد أن يقول لعطية الله شيئاً.. فُوجئ به وهو يَمْضَغ في شرود وقد انحدرت

دمعتاه من تحت نظّارتيه الطبيتين.. وغابتا في شاربه الْمُجَلَّل بالبياض.. انتظره حتى رشف آخر رَشْفة.. وناوله قُصاصة من الورق وحمل الزجاجة وانسحب بهدوء.

فَضّ عطية الله القُصاصة بيدين مُرتعشتين.. وأنْعَم النظر في تلك الكلمات التي تراقصت حروفُها أمام عينيه.. كانت مكتوبةً بخطٍّ رَديء ربما بسبب العجلة.. قرأ:

(ارْجانِي.. عارِف وين نلْقَى المفتاح.. تَوّا ناخِذ حَقّي وحَقَّك ونْجِيْك.. كيف ما قلت لك قبل ما نصلوا الْمَرْج.. ردّ بالَك تَسْأل أيّ واحَد عن تفسير.. كَثْرة الأسئلة ممكن اتْضَيَّع حَقَّك)

❊ ❊ ❊ ❊

مثلما تراءت المرئيّات أمام ناظريه ضبابيةً.. فقد اتَّشَحَت الأمور في ذهنه بضبابية مماثلة.. لعلّه حَدّس بما تعنيه الورقة.. وبنصف أمل قرَّر البقاء.. كانت هناك عوامل منها ضعف البصر والتعب تُرَجِّح بقاءَه وانتظار شروق الشمس.. وكانت هذه القُصاصة بهذا الأمل الضبابي عاملاً آخر يُضاف إلى تلك العوامل.. دَسَّ الورقة في جيبه.. وفتح باب السيارة.. وانْدَسَّ في المقعد مُنتظِراً قدوم صاحبه والصباح.

ظِـلّ الكَـتف

(مُهداه إلى ضحايا الإيدز في حادثة مستشفى الأطفال ببنغازي)

شـكوت لزوجتـي مَرَّة من ألَم حادٍّ في جانب كتفي من جهة العمـود الفَقـري.. ورجـوتها أن تـدلّك موضـع الألم بالزيت والخل والليمون.. سألتني:

- وين؟

- في ظِلّ الكتف.

- ظل الكتف في الصبح وإلاّ في العَشيّة؟!

تذكّـرت هـذا وأنـا أجلـس إلى السُّفرة ومعي ثلاثة آخرون.. وعيوننا تراقب الكتف الوحيدة الموضوعة مع قِطَع أخرى من اللحم أقـلّ شـأناً.. والملاعـق تحفر في الرّزّ خنادق لإيقاع الكتف.. الرباعة المجاورة نجحت - كما يبدو - في حَسْم الأمر.. وفاز أحدهم بالكتف وجـرّدها مـن اللحـم.. وهـمّ بقـراءة مـا سُـجّل علـى العظـم مـن

علامات.. رفعه باتِّجاه المصباح.. سأله أحدهم من إرباعة أخرى في الرفّة المقابلة من البيت:

ـ أيش فيها ها الكتف؟ فيها شِي مطر؟

وقبل أن يجيب نهض أحد الثلاثة الذين كانوا معي.. وكان شابًّا مُلتحياً يضع الساعة باليد اليمنى وسرواله قصير.. خطف عظم الكتف بسرعة وألقى به بعيداً وهو يصيح:

ـ حرام.. جهل.. خُرافة.

وسرت في الجلسة كلّها تعليقات ومعابثات على هامش ما حدث.. وفي خِضَمّ ذلك كان ثمة سؤال: ما الْخُرافة؟ هذا السؤال الكبير بحجم كوكب المشترى.. والذي نراه بمنظار غرورنا صغيراً كالمشترى.. فنضحك ونطمئن وننام.. ومن الْمُفارَقات أن الخِطاب الرافض للشيء قد يقبل مثيله أو نظيره.. فالجِنّ والسِّحر والعين مفاهيم ومُسمَّيات من الحقل ذاته الذي تنتمي إليه العِرافة والتنجيم وقراءة الكتف والكَفّ.. والاحتكام للعِلْم والتفكير العلمي لا يُجْدي دُعاة المفاضلة والتمييز بين هذه المفاهيم نَفْعاً.. لأننا إذا ما وضعناها تحت مسطرة البحث العلمي فلن نجد لا الجِنّ ولا العين بأكثر عِلْمية من العِرافة ولا التاقزة.. دار هذا بذهني ولكن لم أكن

لأجـرؤ على البوح به وأمامي الآخر المتمترِس بالْمُقَدَّس حول هذه الـسُّفرة المـستديرة.. فأنـا أحـياناً مـثل رأس المـال.. شـيئاً فشيئاً بدأ الـنقاش يـتخذ مـساراً ساخراً.. فالسُّخرية هي أيسر الوسائل لمعالجة الأمـور الـصعبة.. وتاريخ التطور الإنسانـي هو في وجه من وجوهه تاريخ السُّخرية.. طُرِحت أسئلة يمكن دبلجتها للقارئ الْمُدبلَج: إذا قـرأنا أكـتاف خِـراف كانت بحظيرة واحدة هل نلمس لديها اهتماماً مـشتركاً يجمعهـا؟ هل ثَمَّة شعور بالمواطَنة لديها؟ أم أنَّ كل خروف يُغَنـي على لَيلاه؟ (خَروفاه أو خروفتاه)؟ هل ينحصر اهتمام النِّعاج في الـتفكير في مـصير القبـيلة أو العشيرة؟: أفرادها وأرضها وجوّها وطَقْسها؟ ألا يمكن أن توجد بالكتف نبوءات بانقلابات عسكرية في بلـدٍ مـا؟ أو نجاح عملية إصلاح سياسي؟ أو استقالة زعيم مُعَتَّق في الـسُّلطة؟ أو ارتفـاع أسـعار الـنفط؟ أو ارتفـاع أسعار الكسْبَة على الأقل؟ هل تختلف القراءات باختلاف القُرّاء؟ ألم يكن حَريًّا بالنِّعاج أن تتنـبّأ بمصيرها؟ هل يكون الجزّارون هـم المؤهلون لمعرفة المستقبل واستـشرافه؟ إذا قـرأنا كـتف البقرة هل نجد تفاصيل أكثر؟ نبوءات أكثـر؟ هل يُغَطِّي اهتمام الأبقار مساحة أكثر من تلك التـي ينحصر فـيها اهتمام النِّعاج؟ ماذا عن كتف الفيل؟ لماذا لا تتضح العلامات الموجـودة على الكتف إلاّ بعد الطَّبْخ؟ هل من الضروري للنبوءات

أن تُطْبَخ؟ ما موقف الأجهزة الأمنية من النّعاج إذا ما تجاوز اهتمامها شؤون القبيلة؟ المراح ومحيطه؟

نجح الشاب الملتحي في استدراج الكتف.. كان قد حفر نَفَقاً تحتها.. كان الاثنان الآخران يخاطبانه بالشيخ وقد باركا فِعْلته.. ولذا وجدتُ نفسي في موقف الضعيف.. فهو يحظَى بالأغلبية إلى جانب القَداسة.. كان يأكل ويرد على المعابثين مُتَّهِماً إيّاهم بالتخلُّف والعودة إلى الجاهلية الأولى.. وقِلَّة العقل.. وبالمروق.. ويدعوهم للتقدُّم والتَّنوُّر.

ماذا يحدث لو أننا أخذنا نِعاجَنا في جولات سياحية لِعدّة أماكن في العالم.. وتعرَّفت على نِعاجٍ أخرى في محاولة لِخَلْق حالات تثاقُف بين النِّعاج.. وتواصُل بين الحضارات الخروفية أو الخِرافية؟ ماذا يحدث لو أننا وضعنا بالحظيرة أو المراح جهاز تلفزيون لتشاهد النِّعاج القنوات العربية على الأقل؟ هل كان بإمكانها مثلاً التنبُّؤ بسقوط صَدّام الذي شَكَّك في حدوثه حَمَلة دال الدَّرْويش.. مِمَّن يُوصَفون بالمحلل السياسي والمثقف العربي.. لا أذكر أنَّ أحداً من الحضور وصف مثقفي صَدّام بِحَمَلة دال الدَّرْويش.. فمعظم الحضور صَدّامو الهوى - كما هو متوقَّع - ولذا فلعلّ هذا الوصف من عندي.

ما الفرق بين كتف الكبش والنعجة والْحَولي والْحَوليّة؟ هل للسِّنّ والجنس علاقة بالنبوءات الْمُسَجَّلة؟ هل للنبوءة جِنْس؟ لماذا تُصِرُّ النِّعاج على تسجيل هذه النبوءات بكتابة صوَرية تُشبه الكتابة الهيروغليفية؟ هل تعتقد نِعاجُنا الْمُبَجَّلة أننا ما زلنا بعصر الفراعنة؟ ماذا يحدث لو أننا نجحنا في محو أُمِيَّة النِّعاج؟ هل نظفر منها بكتابة أوضح؟ وقراءة مستقبلية أنضج وأشمل؟

أكْمَلَ الشيخ الشاب أو الشاب الشيخ تجريد العظم من اللحم وتهيّأ لغسل يديه.. هَرَّبْتُ العظم لقارئ الكتف الذي قُمِع ومُنِع من ممارسة هوايته.. كان الشيخ يغسل يديه.. يصبّ عليه صَبي في حوالي العاشرة من العمر.. ملأ الشيخ راحته بالماء المختلط بالصابون وقبل أن يضع هذا المحلول في فمه للمضمضة سأل الصبي:

- لمن أنت يا ولد؟

وشرع يتمضمض.. ردّ الصبي ببرود:

- أنا لعمر بن الخطّاب..!

لم يجرؤ الشيخ حين ذاك على البصق واضطر لابتلاع ما في فمه.. تجهّم وجه قارئ الكتف وأخذ يردد:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

توقّف الحضور عن الضحك وتجهّمت وجوههم:

- هـا اللـي كَلْ ها الكتف مات واحد عزيز عليه.. واحد قريّب منه.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. من هو اللي كَلْها؟

انتبه الشيخ لما يقوله قارئ الكتف.. وعندما تأكَّد أنه الْمَعْنـي بالنـبوءة أخـذ يسأل قارئ الكتف ويستحلفه: (هل ما يقوله صحيح أم مجـرَّد مَقْلَـب) فأشار هذا إلى علامة تُشبه بقعة الزيت على الورقة ولها شكل المستطيل:

- آهـو القـبر وآهـو انـت.. شـوف القـبر.. وشوف المسافة اللي بينكم.

اضطرب الشيخ وأخذ يُشَكّك:

- كَذَبَ الْمُنَجِّمون ولو صَدَقُوا.

خرج.. ثم عاد.. جلس.. ثم نهض.. خرج.. عاد.

مـا عدتُ أتحسَّر على ضياع الكتف.. لكن ما حدث فتح الشَّهيّة للتساؤُل: كـيف يمكـن ربـط النـبوءة بمن سيأكل الكتف؟ هل في ذلك انـتقام من أَكَلَة الأكتاف؟ هل هو تحذير للشيوخ المتسابقين على الولائم للفـوز بهـذه الجائـزة الْمُـسَمّاة بالكـتف؟ والتـي أشـادت بأكلها حتى الأمثال العربية الرديئة.. وزعمت بأنه فَنٌّ يتقنه الموهوبون والخاصَّة؟

جاءت سيارة تسأل عن الشيخ.. كان حينها في الخارج.. تحاور مع السائق.. ثم ركِب سيارته وانطلق.. لم ينتبه أحد - كما يبدو لغيابه - استمروا في هذا الانثيال أو هذا التداعي وكان السؤال المفاجأة:

- ماذا عن كتف الخروف البلغاري؟ هل تنْظر (كما يقال في التعبير الشعبي) إلى البلغار أم إلينا؟ أم أنَّ الخِراف البلغارية لا تُؤْمِن بهذا أصلاً؟ هل يهمُّها أمر الممرضات البلغاريات اللائي حَقَنَّ الأطفال بفيروس الإيدز؟ هل يُنَفَّذ الْحُكْم الصادر ضِدَّهن؟ أو سيُنْقَذن بمعجزة أو كرامة دبلوماسية؟ (وبقليل من الدبلجة).. أم يُنقَذْنَ بشهامة ليبية.. لأنَّ الليبيين أجواد.. وتبات في رز ولحم وكتوف وسِيقان؟ والله ينعل الشيطان؟ والعالم بين دَرْب وعادة؟ واللي يسَلِّف السبت يَلْقَى لحَد قدّامه؟ وحتى نحنا عندنا ممرضات وأطباء؟ وما هن وحدهنش.. معاهن فلسطيني ها البلغاريات؟ واللي صار قضا وقدَر.. و إرادة الله؟ وقال لك كَبِّرْها تَكْبَر.. صَغِّرْها تَصْغَر؟ امْبُولة؟ والبلغار عرب برانيّة؟ وكانوا اصحاباً لنّا أيام الكاكي والمعسكر الاشتراكي.. الدنيا فارغة؟ وبيّنا وبينهم قَدْر وحَرَم.. وماء ومِلْح.. ومَشْي وجَيّ؟ هل تُطَبَّق عليهنّ الآية: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ أم سيُنْقَذْنَ بِزَعْم أنّ البلغار ليسوا مَعْنِيِّيْن بهذه الآية.. لأنهم ليسوا من أولي الألباب؟ فاللبابة أو اللبلبة حِكْر

على خير أمة أخرجت للناس.. وهي المقصودة بالخطاب في الآية؟ خاصةً وأنَّ الأمر مُتَعَلّق بنساء وهن - في أي زمان ومكان - ناقصات عقل ودِين.. أي لا لبابة أو لبلبة لديهن.. كما جاء في الموروث الْمُقَدَّس؟

انقطعت الكهرباء.. لم يكن ذلك بالحدث الاستثنائي.. بل مثل قدوم شهر رمضان وبداية العام الدراسي ونهايته.. ومثل فصل الشتاء.. ومثل ومثل ومثل.. حدثٌ معتاد ومفاجئ.. أخذت برودة الجو تزداد.. وفاجأني الألم المعتاد في جانب الكتف.. لا أقول (في ظِل كتفي) فالوقت كان ليلاً والظلام يعم المكان.. أخذ كلٌّ مِنّا يُفكِّر في حذائه.. أحدهم كان يتحسَّس حذاءً ويسأله أو يسألها:

- انتِ كندرتي.. ارحم بيّك ردِّي.

رقَّ قلبها له فأخرجت لسانها وأجابت برائحة ركيكة.. ولَكْنة حذائية عَفِنة.. ولكنَّ الرائحة لُغَة صعبة.. لا يُتْقِن صَرْفَها ونَحْوَها إلاَّ كِلاب الشُّرطة.. مأساة الأحذية ومأزقها أنّها بمثابة أفواه مفتوحة وألْسنة.. ولكن لا تسأل الأقدام عن هويّتها.. أفواه وألْسنة بلا تساؤل.. أقصى ما يمكنها القيام به التضايق والاتّساع في صمت.. كُنّا قلقين.. أصحاب الأحذية الجديدة الْمُستنيْرة والْمُحترَمة أشّد قَلَقاً بالطبع.

* * * *

بَهْجَة مُرتَجَلَة

متى قامت القيامة؟ يثور هذا السؤال في نفسي كلما اكتشفت مؤامرة من مؤامرات الجسد.. ففي يوم القيامة تشهد الجوارح على صاحبها.. ولكن عجباً إنَّ هذا من الأمور المألوفة في حياتنا الآن.. يُنكِر الْمُذنِب تُهمتَه وتفضحه حتى بقايا لعابه أو إفرازاته الأخرى.. تفضحه مزقة من قميصه.. حتى كلب الشرطة يتآمر عليه مُستغِلاً رائحته.. أليس ذلك مُبرِّراً للتساؤل: متى قامت القيامة؟ يخالجني أحياناً شعور بأنَّ القيامة قائمة بوجود الإنسان ذاته.. بقيامته على هذه الأرض.. و يُخَيَّل إلَيّ - كلما عبرت أحد كبارينا العتيقة - بأنني أعبر الصراط.. وبأن سيارتي العجفاء هي كَبْش العيد.

لست مُتَّهَماً حتى أتحدث عن شهادة الجوارح والملابس وكلاب الشرطة.. ولكن استدرجتني إلى هذا الحديث مؤامرة أخرى ذات طابع مختلف:

عندما أكون مَغموماً ومُحبطاً ألجأ إلى النوم.. كنت أجد فيه

بَهجة وسلوى.. ولكن جسدي لا يقبل بذلك أحياناً.. أنفي تحديداً ما يقـف بينـــي وبـين هذا الحل السِّحري.. ولذلك فعادةً كلما لجأت إلى الـنوم أيقظنـــي شخيري.. ولكن لحسن الحظّ أنّ لدَيّ حَلاًّ آخر يعتبر بديلاً للنوم.. وهو العَبَث والْمُشاكَسة.. بمعنى آخر اختلاق البهجة أو ارتجالهـا.. في المـشكلة الأخـيرة.. والتـي تَمثّلت في إيقاف مرتبـي مع مـرتبات مجمـوعة مـن الزملاء بفعل أحد القرارات الطائشة.. جرّبت الـنوم.. فتآمـر علـيّ أنفـي.. ومـنع مـرور الهـواء.. فلجأت إلى الحلّ الثاني.. خرجتُ بسيارتـي الْمُتهالِكة أجوب شوارع القرية أو المدينة.. لا أدري كـيف أُصَـنِّفها؟ لفـت نظـري تجمُّع من السيارات أمام مبنى الـسينما.. قلت ربما كان ذلك عرضاً مسرحيًّا من هذه العروض التـي تظهر فجأة وتعرض ليوم أو يومين.. ولا يعلم بها أحد إلاّ بالصدفة.. ولا يحـضرها عـادةً إلاّ أصدقاء الْمُخرِج.. أوقفتُ السيارة ودخلت.. كـان الحـضور كثـيفاً.. ولا يوجد إلاّ عدد قليل من المقاعد الشاغِرة.. فاسـتبعدت فكـرة العـرض المسرحي.. رأيت عدداً من زملائي الذين شملهـم القرار الصاروخي.. جلستُ إلى أقرب مقعد لباب الدخول.. وقـد لاحظتُ انتشار رجال الأمن في أرجاء القاعة.. كان شيخ مُعَمَّم يرتِّل القرآن..كان يقرأ آية الزعماء:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن

﴿ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

فهـي الآيـة التـي يـتملّق بهـا قُـرّاء القـرآن الزعماء والملوك والـسلاطين.. ومـا تُليت علـى واحدٍ منهم إلاّ زادته عُلوًّا وتجبّراً.. وصَدّق أنه المقصود بالخطاب.. قرأ الشيخ البسملة ثم عَرّج على آية التعبئة والأحكام العُرْفية: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾.. والتــي كـثيراً ما أدّى التلاعُب بالضمائر الموجودة بهـا إلى كـوارث.. وتذكـرتُ حيـنها قول أحد الأصدقاء: (الضمائر فِخَـاخ القـرآن).. ومـن خـلال هذه الآيات انتابنـي شعور بالخوف والـرهبة.. وبـدا لـي أننــي أقـدمت على الدخول على أمر جَلَل.. وأننــي وقعــتُ في وَرْطـة.. فمـا يُـدريني.. ربما نُفّذت هذه الآية توًّا بـصورة مـا.. وسـاقونـي في حملـة إعـداد القـوة تلـك.. ماذا يكون مـصيري عـندما أجـد نفـسي ـ دون سـابق إنـذار ـ مُجنّداً لخـدمة أيديولوجيا ما؟

فـرغ الـشيخ مـن تـرتيله فقُـدِّم شـخصٌ آخـر.. وفهمت من الـتقديم أننــي دخلــتُ على مهرجان خطابـي بمناسبة ما.. لم أتمكن مـن معـرفتها.. بـسبب ضـجة التـصفيق التـي ارتفعت عندما نهض الـشخص الْمُقـدَّم بـوجه مُـتَجَهِّم.. ودنـا مـن مُكبِّـر الصوت وبدأ حديـثه.. كانـت الـبداية بصبّ اللعنات على الإمبريالية والرجعية..

ومـن ثـمَّ انـتقل الْمُـتحدِّث إلى رثـاء الأمـة العربية.. وبَشَّر بنهايتها وتفـسُّخها وتحلُّلـها.. ومـا أن قال الْمُتحدِّث بنَبْرة حماسية (وها نحن نتجـرَّع كـؤوس الهـزيمة).. حتى رأيتُ أن الفرصة مواتية لمؤازرته.. فيـبدو أنـه خاطـب فيّ شـيئاً مـا.. انحنيت إلى الأمام وأخفيت يدي خلف المقعد الذي أمامي وصفّقت.. لم تكن الاستجابة فورية ولكن لم تتأخـر كـثيراً.. فقـد استجاب لِي البعض في الزاوية المقابلة.. وفي لحظـة ارتجّت القاعة بتصفيق مُجلجِل تخلَّله الصفير وأصوات مُبهَمة أخـرى.. ارتـسم الغـضب علـى وجه الْمُتحدِّث.. وبدأت عيناه في الـدوران كبطـشتين[1] حائـرتين.. اسـتمرَّ التـصفيق لفترة ثم توقّف.. واسـتأنف الْمُـتحدِّث حديـثه.. وبعد مُضيّ زمن يقارب الساعتين.. بـدأت الـرؤوس تـتمايل والـنعاس يـداعب الأجفان.. وربما بدافع العـبث والمشاكـسة فقـط وجدت نفسي مدفوعاً للتصفيق وبالكيفية الـسابقة نفـسها.. وكانـت الاستجابة سريعة هذه المرة.. ومن القاعة كلّهـا.. بـل تـردَّدت عـبارات: الله أكـبر.. الله أكـبر.. وتجـرّأ أحـد الجالـسين علـى مَقْـرُبَة مِنـي على الهتاف: (شعبٌ واحد لا شعبين.. مـن مـراكش....) ولم يُكمِـل فقـد توقّـف التـصفيق بسبب طرقات الْمُتحدِّث على مُكبِّر الصوت ونَهْره للجمهور:

(1) البطشة : البلية الزجاجية "الكرة الزجاجية الصغيرة"

- بلاش تصفيق.. بلاش هُتاف انت وهو.

وأشار إلى أحد رجال الأمن بالاقتراب وهمس له.. فاتّجه هذا نحو الزاوية التي أجلس بها.. فما كان مني إلاّ الإسراع بالخروج.

انطلقتُ بالسيارة.. وبعد قطع مسافة لا ألوي على شيء لاحت في الأفق بوابة غير متوقَّعة.. ورأيت السيارات مُصطفَّة في الاتجاهين.. فعدتُ أدراجي.. وبعد مسافة لحقت بي مجموعة من السيارات التي أُطلِق سراحها.. كانت تشبه رَتْلاً.. أخذت تجتازني فُرادَى.. وما أن أصبحتُ في منتصف هذا الرَّتْل تقريباً حتى راودتني حالة ابتهاج ورغبة في المشاكسة.

شغّلتُ الْمُنبِّه.. وأشعلتُ المصابيح التحذيرية لكأنني في موكب عرس أو مسيرة.. فجاوبني الذي في الْمُقدّمة.. ثم الذي أمامي.. وما هي إلاّ لحظات حتى تحوّل الموكب الصامت إلى موكب مبتهِج.. واجتازتني السيارات التي خلفي وابتعدوا عني.. وكنت أراهم يذوبون في الأفق وأضواء المصابيح التحذيرية تتلألأ.. وأصوات أبواق السيارات تطرق سمعي.. أما أنا فقد عدت مُبتهِجاً رغم أنف أنفي.

* * * *

الْمُحصِّلة الصِّفْريّة

(1)

إلى الشرق من بوابة شَحَّات بمسافة مائة متر تقريباً تتجمَّع سيارات خاصة تقوم بنقل الناس بالأجرة إلى درنة والبيضاء وإلى المناطق الواقعة بينهما والقريبة منهما.. ويتم تنظيم الأمور بحيث تُتاح لكل سائق فرصة معقولة.. على مسافة من موقف السيارات هذه يقف ثلاثة أشخاص ينتظرون أن يَمُنَّ الله عليهم بسيارة تنقلهم مَجّاناً إلى حيث يقصدون.. يَمُرّ بهم سعد بسيارته الْمُتهالِكة.. يتوقَّف ويدعوهم للصعود.. كانوا يقصدون القبّة.. وفي الطريق يتجاذبون أطراف الحديث.. ويتعرَّف كلٌّ على ظروف الآخر.

يصلون القبّة.. وعندما يهبط الثلاثة يُمطرِونه بدعاء لو استجيب له لأصبح مليونيراً..!

(2)

يـرى سـعد في المنام أنَّ الدعاء الذي دعا به الثلاثة قد عَرج إلى الـسماوات العُـلا.. ولكـنّ دعـاءً آخـر كان يعرجُ أيضاً مُتجنِّباً الأقمـار الـصناعية والأواكـس والـشهب والنـيازك.. كـان دعـاء صـاحب الـسيارة التـي كانـت تنتظـر بالـدور.. كـان دعـاءً حارًّا ومُختصَراً مُنصبّاً على سعد:

- الله يخرب بيتك حرمتنا من ها الركّاب.. ودّر علينا ثلاثة دينار الله يودّره.

فُحِص الدعاءان المتضاربان بعد وصولهما.. وأُمِر بإلقائهما في سلّة المهملات السماوية.

* * * *

العَـمـيْـلان

(1)

جلس بالقرب مني في الحافلة.. وللوهلة الأولى فاجأني بصراحته وانطلاقه.. ولولا لهجته السليمة لشككتُ في كَونه ليبيًّا.. وكنتُ لطبيعة عملي الجديد مُتحمِّساً لمجاراته في الصراحة والانطلاق.. وبعد أن بَحَّرنا في الحديث وقَبَّلنا سألني:

- وايش رايك في الوضع؟

- وانت ايش رايك؟

وأخذنا في تشريح الوضع.. وشرعنا نلعن ونسبّ كل الظواهر السلبية دون تَحفُّظ.

وصلت الحافلة الْمُفترَق التاريخي كما كنتُ أُسَمِّيه.. حيث يتفرّع عن الشارع الرئيس شارع الكرامة الْمُتَّجِه شمالاً.. وهو شارع طويل متعرِّج كثير الشَّجَر.. يوجد بنهايته المكتب.. هبطتُ وهبط هو

أيضاً وودّعني وظلّ واقفاً لبرهة.. وبعد أن رآني أسلك شارع الكرامة عَبَرَ الشارع الرئيس إلى الجهة المقابلة.

(2)

فرغتُ من كتابة تقريري في إحدى الغُرَف بِمبنَى المكتب.. وهممتُ بالخروج لتسليمه لرئيسي.. وإذا به يدلف إلى الغُرفة وفي يده ورقة وقلم.

فُوجِئ كلٌ منّا بالآخر وحدّق في وسألني:

- انت؟!

- وانت؟!

* * * *

النقّار• والأواكس

الشاطئ الصخري الخَطِر يستقبل العائلات المتوجّسة.. يقف عبدالحميد عند الْحَدّ الذي ينتهي إليه الموج.. وزوجته تكشف ساقها وتغرف من ماء البحر وتسكب عليه.. والأولاد الثمانية وأختهم ندَى يبتعدون عنهما في البحر ويقتربون مع كل صيحة تحذير من والديهم.. نَدَى الشابة الجديرة باسمها.. لو رأتها نحلة لحطَّت عليها.. تعانق في جُرأة المويجات.. وما يظهر من جسمها كافٍ لجعل الموجة تنتحل شخصية النسيم.. العائلات الأخرى تنتشر في نقاط مُتباعدة.. كلٌّ ينظر إلى الآخر بحذر.. وينظرون إلى البحر بحذر أيضاً.

البحر هادئ.. يُغري.. يدعو الواقفين على الشاطئ للدخول.. البحر مثل نَدَى جدير باسمه.

على مسافة هناك تَلَّة.. وعلى التلّة بعض السيارات.. بإحداها - بمقعد السائق تحديداً - كان يجلس وقد فتح الباب ووجّه منظارَه نحو الشاطئ.

ينتبه عبدالحميد لوجوده.. ويلاحظ منظارَه الْمُسلَّط على

• النقّار (عامية): الرجل شديد الغيرة على أهله وكل قريباته.

الأُسرة.. يُحدِّق عبدالحميد فيه.. ينتابه شعور الْمُراقَب العاجز.. شعور البلاد التي تمسحها الأقمار الصناعية المعادية والأواكس.. يستمر الاثنان في التحديق الْمُتبادَل.. ليس عبدالحميد مُستعِدًّا للابتعاد عن أُسرته والدخول في معركة قد تكون خاسرة.. يهتدي إلى ما تلجأ إليه البلاد الْمُراقَبة عادةً.. يكوّن من الإبهام والسبّابة حَلقةً ويلج فيها سبّابة اليد الأخرى.. يلاحظ ردّة الفعل.. يخفض المراقِب منظاره ويتلفّت على يمينه ويساره.. يعود للمراقبة ويسلّط منظاره على الأُسرة مرَّةً أخرى.. يُواجَه بالحملة الإعلامية ذاتها.. يخفض المنظار.. يعود للمراقَبة.. يُصَعِّد عبدالحميد من الحرب الإعلامية واضعاً يدَه على مكانٍ ما من المنطقة السُّريالية الواقعة بين الرُّكبة والسُّرّة.. يتلقّى الْمُراقِبُ الصَّفْعة ويردّ بحركة عصبية.. يعود للمراقَبة.. يُكَرِّر عبدالحميد الحركة التصعيدية.. يهبط المراقِب من السيارة.. يقفل بابها ويتجه نحو الشاطئ.

يلتفت عبدالحميد نحو أبنائه الْمنتشرِين بالمياه القريبة من الشاطئ.. وإلى زوجته التي تسكب الماء على ساقيها وذراعيها.. يصيح فيهم:

- هَيّا يا عيال.. الريح تغيّرت والبحر اعْلِي.. يلاّ يا بنت.

لم ينتبه إلى ابتعاد نَدَى عن الشاطئ.. تتوغَّل نَدَى في البحر..

يقترب حامل المنظار.. تبتعد نَدَى في البحر.. يقترب حامل المنظار.. كـان شـابًّا في منتصف العقد الثالث من العمر على ما يبدو.. تختفي نَـدَى.. تظهـر يـدُها.. تُلَـوِّح.. تُلَـوِّح.. تختفـي اليد.. تصرخ الأم.. يـصمت الأب مَـشدوهاً.. يُلْقـي حامـل المنظار بمنظاره بعيداً.. يخلع ملابسه.. يقذف بنفسه في الماء وينطلق سابحاً نحو نَدَى.

* * * *

قاطِــر ومَـقْـطُــور

لـيس سـوى هـذه السلـسلة الْمُمـتدَّة أمامــي.. والذائـبة في الظـلام.. وهـاتين العيـنين الحمـراوين اللـتين تَبْـرزان علـى جانبـي السلسلة من حينٍ لآخر.. إلى أين تجرني هذه السلسلة..؟

* * * *

نوشِـك علـى دخـول مدينة الوحدة الوطنية (درنة).. بل إنّنا دخلناها بالفعل.. وأمام أحد مصابيح الشارع تتعطَّل السيارة.. نهبط منها أنا وأخي مُستغلّين ضوء هذا المصباح.. ونشرع في محاولة لمعرفة مـاذا حَـلَّ بها.. نفتح غطاء الْمُحرّك (الكوفنو).. لا نتوقَّع أن يكون العطل جسيماً.

تلك الليلة توافق ليلة الثامن والعشرين من رجب.. والفصل شــتاء.. نــتفحَّص البومبيــنا.. خــيوط الــشمعات.. البونتــيني.. الكارباراتـوري.. فجـأة تـنقطع الكهرباء.. تغرق المدينة في الظلام..

انغماسنا في الفحص لَم يُمكننا من الانتباه لحضوره.. فجأة نسمع صوته من ورائنا:

- جاكَم الفزَع.

(الفزَع) في العاميّة لفظة تعني تقريباً عكس معناها في العربية.. تأمّلناه على ضوء سيارته.. ثلاثيتي أو أربعيني.. يرتدي الكاكي.. شعر رأسه أسود كثيف ومُجَعَّد.. قَصَّته من أمام الأذن تجعله يتَّخذ شكل الباروكة.. وَجنتاه بارزتان.. وأنفه طويل مُستدقّ.. وتفّاحة آدمه بارزة.. يتحدَّث بصوت مخنوق وبعصبيّة:

- جِيْت بَيْش نساعدكَم.. أيّ خدمة..؟

يُخرِج من سيارته سلسلة دون انتظارٍ لردِّنا.. نُلاحِظ بأنّ سيارته مَلأى بالقبعات.. شنان ليبيّة.. حُمْرٌ وسُوْد.. ومعارِق بِيْض.. وشنان أفريقيّة خُضْر ورماديّة وبُنِّيّة.. وطرابيش ملونة.. وقبعات إسكيمو وشِيشان وروس ذات حوافّ مُتهدِّلة.. وقبعات أفغان مختلفة.. وأنواع عديدة من القبعات العسكرية بمختلف الألوان والتصاميم.. وقبعات كاوبوي.. وشماغات ملونة.. وأخرى سادة.. وعقالات وكوفيّات فلسطينية.. وعمائم رجال الكهنوت الإسلامي بمختلف طوائفهم.. ما يتَّخِذ منها شكل القُمْع.. أو شكل نصف الكُرَة.. أو ما يُحيط منها بالطربوش إحاطة البَياض بالصَّفار في

نـصف البَيـضة الْمَـسْلوقة.. بَعـضها سُـنِّية اللـون.. وأخـرى لـونها شِـيعي.. بالإضـافة إلى عمـائم الـسِّيْخ والهندوس ورجال الكهنوت المـسيحي والـيهودي والـبوذي.. والقبعات والعمائم للمواطن مثل الذيـول للذبـيحة.. رمـز هـويّة.. هـذا مـا يعرفه الْجَزّار الْمُبتدئ.. ناهـيك عـن ذوي الْخِبْـرة.. لـذا يحتفِظ الْجَزّار بالذَّيل في الذبيحة.. ويكون آخر ما يبيعه منها لكي لا يتشكَّك الزبون في هويّتها.

فهل كان تاجِراً أم باحثاً عن هويّة..؟!

وبيـنما كُنّا ـ أنا وأخي ـ مُندهِشَيْن لِما نرى.. كان قد أكمل عمله.. وأوثق السلسلة بمقدّمة سيارتنا.. وأوثق طرَفها الآخر بمؤخّرة سـيارته.. وقفـز داخلـها.. يُحاول أخي أن يفهم.. يُحاول أن يُوقفه عـن العمـل.. أمّـا أنـا فواقع ضحيّة مشاعر مُتضارِبة.. يضغط على دَوّاسـة الوَقـود.. نُطالـبه بالـتوقُّف.. نُطالبه بالتحاور والتفاهم على الاتِّجاه والهدف على الأقل.

ـ يـالاّ اركـبوا.. أنا عارِف اتّجاهكَم.. عارِف مصلحتكم.. وأنا عارِف كِلّ شي.. وبعدين أنتو أحرار في النهاية.

هكـذا يـصرخ وهـو يُعَـشِّق الـتروس.. وتتحرَّك السيارتان.. القاطِـرة والْمَقْطورة.. أقفزُ إلى السيارة مُتَّخِذاً وضع السائق.. بينما

يظـل أخـي يُجادِل.. يصرخ.. وحينما يُحاوِل أن يركب يدفعه باب السيارة فيقع.. ينهض مُلَوِّحاً بيده في غضب.. يصرخ:

- يا دُرْزي.. يا يهودي.. يا نصراني.. يا طَحّان..

يـركض في أثرنا.. أُلَوِّح لتاجر أو جامِع القبعات هذا مُحاوِلاً إيقافـه.. فـيُلوِّح بقبـضته في الهـواء مُبتهِجاً.. يرفع صوت المسجِّل.. كانـت تنـبعث مـنه أناشيد حَماسيّة: (المارِد العربي.. العالم العربي.. خَلّي الثورة تولّع نار.. نار يستعمار!!).

أُلَـوِّح لـه فـيعقد قبـضته ويُلـوِّح في ابـتهاج.. أصـرخ فتغطّـي الأناشـيد علـى صـوتي.. نغـرق في الظـلام أكثر.. يتجمَّد وجهي من الهـواء الـبارد فأرفع الزجاج.. ضوء السيارة الضعيف لا يسمح برؤية الكثير.. لا أرى سوى هذه السلسلة الْمُمتدَّة نحو الظلام لتذوب فيه.. أُعَشِّق التروس على أعلى سرعة لكي يدور ضاغط الهواء (السيرفو) الـذي يُمَكِّـن الفـرامل مـن العمـل.. نمـرّ بمـنعطَف صـعب يُذكِّرنـي بالمنعطفات التاريخية.. يشع الضوءان الأحمران الدّالاّن على استخدامه للفـرامل.. عيـنان حمـراوان فـوق مقدّمـة السلـسلة.. تغمض العينان وتـزداد سـرعة الـرَّكْب.. تـرتطم الـسيارة بمطَـبّ.. أسمع جزءاً منها يـسقط.. قطعة تسقط مُصدِرةً صرخةً معدنية.. أُنْزِل الزجاج.. أُخرِج رأسـي محاولاً الصُّراخ.. أسمع من المسجِّل أغنيةً تُشبه في لحنها (طلع

البدر علينا من ثنيّات الوداع..).. ثُم صوتاً يتلو القرآن بنبرة سعودية.. أصرخ.. نمرّ بشباب مُلتحين يُحاولون اعتراض الرَّكْب.. يكاد يدوسهم.. يصطدم أحدهم بمؤخّرة سيارتي.. يقع أرضاً مُتأوِّهاً.. أمّا هو فيُلوِّح بقبضته مُبتهجاً.. يرسم بإصبعَيه علامة النصر.. أرفعُ الزجاج.. مَطبٌ آخر يُسَبِّب للسيارة رعدة مُستديمة.. هكذا تتضاعَف أعطالُها.. لَو تركَنا وشأننا لأمكنَنا إصلاحها.. لَم يكن عطلها جسيماً.. يخطر ببالِي الْمُنَبِّه.. أضغط عليه ضغطاً مُوقَّعاً.. أرى قبضته تُلَوِّح بتناغُم مع الإيقاع.. أراقب هذه السلسلة الذائبة مقدّمتها في الظلام.. وهاتين العينين الحمراوين.. أُعاوِد الضغط على الْمُنَبِّه.. أرى قبضته تُلَوِّح لي في ابتهاج.. يعلق شيء ما بمنظومة الْمُنَبِّه.. لا يتوقَّف عن الزعيق.. أحاول إيقافه عبثاً.. يضغط بدوره على الْمُنَبِّه..نتحوَّل إلى رَكْب زاعِق ينطلق وسط الظلام.

هل فَقَدَ السيطرة على قيادة هذه الآلة..؟ أهو القائد أم المقود..؟! يتجاوز بوّابة.. يكاد يدوس أحد أفراد الشرطة الواقفين بها.. ينجو الشرطي بأُعجوبة.. تلحق بنا سيارة الشرطة.. يُشهِرون السلاح في وجهه.. يُطلِقون رصاصات في الهواء.. يقف.. يتقدَّم أحدهم إلَيّ ويُطالبني بدَفْع المخالفة.. أُحاول الرفض فيخنقني ويُفَتِّش رفيقه جيوبي.. ويأخذ السبعة والعشرين ديناراً التي كانت

معـي.. علـى ضوء سيارة الشرطة أكتشفُ أنَّ ما يجرُّنـي عبارة عن خَزّان نفط.. يصرخ الشرطي آمراً إيّاه بالتحرُّك بالسرعة القانونية.. ينطلق الـرَّكْب مُجَـدَّداً.. سـيارة الـشرطة تـسير أمامـنا.. يحـاول اجتـيازها.. تـزداد سـرعتها فتتسع المسافة بيننا.. تغيب في الأفق.. أُنـزلُ الـزجاج.. أسمـع موسيقى أفريقية صاخبة مصحوبة بغناء.. أرفع الزجاج.

سلـسلة تُـشير نحـو الظـلام.. وعيـنان حمـراوان تُحَـدِّقان.. تغمـضان.. تُحَـدِّقان فجـأة حتى أكاد أصطدم به.. ينعطف متحاشياً شيئاً ما.. سالكاً طريقاً آخر يبدو أفضل تمهيداً.. أرى سيارة مُحطَّمة بـسبب حـادث مُرَوِّع.. أرى الشرطي الذي سلبنـي نقودي يسحب الـسائق ذا الـشَّعْر الأشـعث واللحـية الكَـثّة.. يشدّه من شَعر رأسه ويـركله.. أُنـزلُ الـزجاج.. وأُخـرِجُ رأسي.. أسمع غِناءً ينبعث من المـسجِّل.. إنهـا أغانـــي الـريف الأمريكـي.. غِناء يُذكِّرنـي بغناوي العَلَـم وضَمّة القَشّة عندنا.. ثمَّة تشابه قويّ في الإيقاع.. تشابه ربّما أغـرى النرجـسيين الليبـيين لـيؤكّدوا زعمهـم بـأن الهـنود الْحُمْـر يـنحدرون مـن أصـول ليبـية..! يـبدو لـي هـذا الْمُغنـــي عبد كافي أميركي.. بولندي أميركي.. عبد سلام حرّ أميركي.

تجـتازنا سيارة الشرطة بضوئها الوامض.. في الكرسي الخلفي

يـتراءى لـي سـائق السيارة المنكوبة بشَعرة الأشعث الأغبر.. تُرسل زعـيقاً مُبـتهجاً.. يُخرِج تاجر القبعات قبضته ويُلَوِّح مُحيّياً.. تُبادله قبضة من سيارة الشرطة التحية.. ينطلق الرَّكْب في أثرها.

عَدّاد الوقود أمامي يُشير إلى الصِّفْر.. الْمُنَبِّه الذي يزعق فجأة ويتوقَّف فجأة يُؤثِّر سلباً على ضوء المصابيح.. هل يُمكنني المراهنة على نفاد وقود سيارة تاجر أو جامع القبعات هذا وهو يقود حقل نفط مُتحرِّك..؟! هـل يُمكنني المراهنة على بروز شرطي ما وقد تلقَّى لـتَوِّه تحية مـن الـشرطة..؟ أم أنَّ علـيّ أن أُراهـن على هذه الفـرامل..؟ هل الفرامل قادرة على قَطْع هذه السلسلة التـي تذوب في الظـلام..؟ لـنفترض أنَّنـي دسـتُ علـى الفـرامل.. دستُ على الفـرامل.. انقطعـت السلـسلة.. بـل سـحبت معها جزءاً من مقدّمة السيارة.. انطفأت المصابيح.. ظلام دامس.. أين أنا..؟

خـطّ الأفـق الضعيف لا يَشي بشيء.. أهذا رأس الهلال أم رأس اجدَيْـر..؟ رأس لانـوف.. أو كمـا ترجمه مُعَرِّبو ما لا يُعَرَّب بـرأس الأنوف..؟ أم رأس التِّيْن..؟ بئر دوفان أم بئر حكيم..؟ أم بئـر الغـنم..؟ عـين مـارة..؟ أم عين زارة..؟ سرسرة أم سرت..؟ سـارة أم أُوزو أم أوزي..؟ قَـصْر بـوهادي أم قَصْر خيار..؟ قَصْر ليبيا أم قَصْر الجدي..؟ يُخَيَّل إلَيَّ أنَّه قَصْر الجدي.. فهذه الأجواء

فـيها شـيء مـن كَمْـبُوت.. أو علـى الأرجـح بئـر الأشهب.. هل بالإمكـان الخروج من أجواء كَمْبُوت هذه..؟ أفتحُ الباب تتحسَّس قدمي الأرض ويدي الوسادة.. ألَوِّح للكابوس كما لو كان كاميرا خَفِيّة.. وأبتسم.

* * * *

الْجَمَل الفـضِّي

(1)

... فأخذ الراوي يتمتم لنفسه وكأنه قد نسي ما كنَّا فيه.. كان يردد وهو مطرقٌ برأسه:

- كُلّ ظلام يبتلعنــي ظِلي.. كُلّ صباح أُفاجأ بنفسي.

ثم رفع رأسه وقال:

- مادمـتم تريدون قِصّة قاصرة.. أي قِصّة قصيرة.. فلا مَفَرَّ إذن من الْجَمَل الفِضِّي:

(2)

قبل الشروق بدأت الشمس في إضفاء لون فاتحٍ على السماء في اتجـاه الـشمال الـشرقـي تقـريباً.. أخـذ تدريجـياً في المـيل نحـو الاصـفرار.. وكـان الـوادي يـصنع في ذلك الاتجاه بضفتيه العاليتين

انفـراجاً يبْـرز البحـر مـن خلالـه ملـتحماً بالـسماء.. بمرور الوقت وبـالاقتراب مـن مـوعد شروق الـشمس يتّـضح الحد الفاصل بين السماء والبحر.

كانـت العـصافير قـد استيقظت قبل هذا.. وقد أصدرت في البداية زقزقة على هيئة أصوات خشنة قصيرة متباعِدة.. ثم تداخلت وتـسارعت وخَفّت خـشونتها.. وببـزوغ الـشمس خَفّـت الزقـزقة تدريجياً.. ولم يعُد يُسمَع منها سوى زقزقة القُبّرات بوقعها الخاص.. والتـي يتفاءل بها الناس.. ويُرَدِّدون حين سماعها (خَيْر يا طْوَير).. مُتوقّعين حدثاً سعيداً.

الـنَّدَى - الذي استيقظ أيضاً بفعل أشعة الشمس - تحوّل إلى ضـبابٍ خفـيف.. أخـذ في الـصعود عَبْـر الـوادي.. ثـم شيئاً فشيئاً تلاشَـى.. والأشـجار البعـيدة التـي كانت علاماتٍ سوداءَ اتَّشحت رويـداً رويـداً باللّون الأخضر.. ثم تحوّلت إلى الأزرق.. ثم بارتفاع الشمس اندمجت في الأفق.

في الـشمال تـتخذ الْجـبال الْمَكـسوَّة بالغابات مظهراً مَهيباً.. تَبْـرز خلال الأحراش بقع صغيْرة من الأرض الصخرية والفراغات الترابـية الْحمراء والبُرتقالية.. منها ما له شكل حيوانـي أو إنساني.. من هذه الجهة يُتَوَقَّع ظهوره.. فالأشجار كانت تَهْتَزّ بفعل النسائم..

وكان اتجاهها يوحي بأنها قادمة من الشمال أو الشمال الغربي.

أمّا في الغرب والجنوب فقد كان الغطاء النباتي أشدّ شفافية.. وكانت الأرض أشدّ مَيلاً للانبساط.. تَبْرُز بعيداً بعض القِمَم الصغيرة.. وكان الأفق يبدو كطبقاتٍ متباينة الكثافة من الدّخان الساكن.. أما الأمر السعيد الطريف الذي تتنبّأ به القُبّرات فلم يحدث بعد.

بارتفاع الشمس ارتفعت درجة الحرارة وحُقّ للجداجد (أي البُوزنّيْن) أن تُغنّي.. ويا له من غناء.. يبدأ بصرير مُتقطّع كعملية تسخين ثم يتواصل.. صرير مُزْعِج مُتَّصِل.. يُشبه أصوات المضخّات الصغيرة التي يستخدمها سُكّان المدن العَطْشَى لرفع المياه إلى الطوابق العُليا من العمارات.

في الظهر لم يتغيَّر شيء سوى درجة زُرقة السماء في جهاتها الأربع.. أو لون الدخان الذي يُجَلِّل الأفق.. ربما مما يعد من التغيُّرات الملحوظة تقلُّص الظِّلال.. وازدياد نشاط بعض الحشرات مثل النحل والنمل.. أما الْجُدْجُد فما زال مُنهمِكاً في غنائه.. سيأتي في الشتاء إلى النملة مُتسوِّلاً كما تقول الحكاية الشعبية.. وستسأله عمّا كان يفعل في الصيف.. فصل الحصاد وسوف يلقي بِرَدِّه التبْريري:

(أيـام الحـصايد.. خَدّنــي القـصايد).. لقد كان أيام الحصاد مـشغولاً بالغناء.. وهذا الرَّدّ سوف يُثِيْر سخرية النملة.. لكنّه يكفيه أنه تمتَّع فصلاً كاملاً بالغناء على طريقته.

بعـد الظهـر لا تغيُّر يُذكر سوى تبادل الشرق والغرب درجة الـزُّرقة في لـون الـسماء والأفـق.. وازدياد صرير الجداجد المزعج.. ونموّ الظِّلال نحو الشرق.. والحدث الهام الذي لا يتكرَّر ما زال يمتنع عـن الحـضور.. بالـرغم مـن أنَّ المكـان بـرتابته المعـتادة مُهَـيّأ تماماً لاسـتقباله.. فالـشمس سـاطعة.. والـسماء صافية.. والآفاق باقية.. والنسمات الشمالية ما زالت تُداعِب الأشجار والأعشاب الْمُصْفَرَّة.

بُعَـيْد العـصر كـان المـشهد يحـتفل بظهـوره بعُـنقه الأبـيض الجمـيل.. ورأسـه الخالـي مـن الآذان والعـيون.. وسنامه ذي الوبر الأبـيض المنفوش.. وقوائمه السِّتّ.. يعبر الأفق الشمالي من أقصى الغـرب إلى الشـرق.. كان حضوره حدثاً رائعاً لا يتكرَّر أبداً.. جعل المـشهد كلَّـه - باسـتثناء الشمس - يتحرَّك.. وكأنَّ الأرض تدور في الاتجاه المضادّ.

إنّـه جَمَـل فِـضّي.. اصـطبغت حَـوافُّ جسمه التـي في اتجاه الشمس بصُفْرة خفيفة.. أمّا تلك الحوافّ التـي في الاتجاه المقابل فقد اكتسبت لوناً يميل إلى الرمادي.

وقبل أن يتوسَّط الأفق انفصلت إحدى قوائمه وأخذت تنْزلق بمحاذاته.. ثم انفصلت أربع قوائم أخرى وسقطت بمسار مائل ببطء خلف الأفق حتى توارت تماماً.. لقد شوّه الفنّان لوحته.. فالريح فنّانة حَمقاء لا تدري ما تفعل.. وبرغم ذلك واصل سَيْره.. وقبل أن يصل الانفراج الذي بنهاية الوادي استطالت رقبته فتحوّل إلى ما يُشبه زرافة بسنام.. ثم تحوّل إلى ما يُشبه القارب الشراعي وهو يعبر الانفراج الذي يَبْرُز البحرُ من خلاله.

ذلك هو الْجَمَل الفِضّي الذي يظهر مَرَّةً في الدهر بتحوّلاته التي لا تتكرَّر.. مع أنَّ عوامل تكوّنه مُكرَّرة.. فدرجة التبخُّر ودرجة الْحرارة واتِّجاه الرياح عوامل مَحْدودة الاختيارات.. فكأنّه بذلك الفَرادَة التي تُولَد من التكرار.

وبينما كان القارب الشراعي ـ الذي اكتسب تدريجياً لوناً أكثر رمادية ـ يغرق خلف ضِفَّة الوادي الشرقية.. كأنّما ليستقرّ على سطح البحر غير المرئي.. أو ليغوص فيه.. كانت الشمس تغوص في لُجَّة الدخان الأصفر في الأفق الغربي.

بعد اختفاء البطلَيْن: الفريد والْمُتكرِّر.. اكتسحت الظلال كُلَّ الجهات تدريجيًا.. وألْبستْها درجةً واحدة من القَتامة.

أمـا القُـبَّة الـسماوية.. الأقلّ قَتامة والْمُرصَّعة بالنجوم.. فقد اتخذت حافَّتُها شكلَ الأفق.

(3)

حيـنما وصـل الـرّاوي هـذا الْحَـدّ سـكت لِبُـرهة مُتطلّعاً في وجوهـنا.. ولاحـظ أنَّ بعـضنا كـان يـتطلَّع إلى الساعة.. وخَمَّن ما تعنـــي تلـك الحـركة.. فشرع في إثارة الموضوع من جديد.. ووجدنا أنفسنا ونحن نغوص فيه.. كأنّما بدأْنا لِتَوِّنا.

الفهرس

عبدالله هارون عبدالله

- الميلاد: 1956 - عَيْن مارَة - الجبل الأخضر.

- عضو رابطة الأدباء والكُتَّاب الليبيين.

**** لـــه :**

- مُجازفة - قصص - مخطوط.

E-mail: abdhaabd@yahoo.com

slamatyadarna@yahoo.com

تنفيذ الطباعة والتجهيزات الطباعية
دار قباء الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة
جمهورية مصر العربية
16 عمارات العبور - شارع صلاح سالم - مدينة نصر
تليفاكس 02/22621365 - محمول 0123140315
E-mail: modern_qubaa@hotmail.com



يقدّم مجلس الثقافة العام للقارئ الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة ، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً ، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًّا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.

مجلس الثقافة العام